في ظلال القرآن

الجزء الخامس والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الخامس والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الشورى والزخرف والدخان والجاثية

سورة الشورى مكية
وآياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم * عسق * كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ؟ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

« اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

« اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ؟ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ، فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية، وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق : بسطه وقبضه ؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ، وما يتصل بها ، تظل — مع ذلك — هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية المتصرف في القلوب . أو وحدانية المتصرف في المصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الوحي — سبحانه — ووحدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطريق . وأخيرا وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزا واضحا ، بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعا . . ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالا ، قبل أن نأخذ في التفصيل :

تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم . عين . سين . قاف » . . يليها : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . مقررا وحدة مصدر الوحى فى الأولين والآخرين : « إليك وإلى الذين من قبلك » . .

ثم يستطرد السياق فى صفة الله العزيز الحكيم : « له مافى السماوات ومافى الأرض وهو العلى العظيم » . . مقررا وحدانية المالك لما فى السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطرادا آخر فى وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد،وتجاه الشرك الذى يشذ به بعض الناس : « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . . فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى أن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض، بينما الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض جميعا من هذه الفعلة الشنعاء التى جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : « وكذلك أوحينا إليك ، قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها،وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه،فريق فى الجنة وفريق فى السعير».. ثم يستطرد مع « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . . فيقرر أن لوشاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت ـ بماله من علم وحكمة ـ أن يدخل من يشاء فى رحمته « والظالمون مالهم من ولى ولا نصير » . . ويقرر أن الله وحده هو الولى « وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحى والرسالة ، فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شىء هو الله الذى أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس فى كل اختلاف : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . .

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف فى مقادير السماوات والأرض ،وفى بسط الرزق وقبضه . وفى علمه بكل شىء : « فاطر السماوات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا

إليك، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه. كبر على المشركين ماتدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب .وماتفرقوا إلا من بعدماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من قبلهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ... الخ » ..

وعلى مثل هذاالنسق تمضى السورة فى عرض هذه الحقيقة؛ محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة فى الوقت ذاته للحقيقة الأولى التى تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسى .

وهذا النسق واضح وضوحا كاملا فى هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقى بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحى والرسالة فى جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثانى ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه ؛ وفى تنزيل الغيث برحمته ؛ وفى خلق السماوات والأرض ومابث فيهما من دابة ؛ وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التى تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب : « يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » .. واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين :

« وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم » .. وفى ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ ، ومالكم من نكير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى فى السورة . حقيقة الوحى والرسالة . فى جانب من جوانبها : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ... » .

ويمضى سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أوغير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة ؛حتى يكون ختام السورة هذا البيان فى شأن الوحى والرسالة: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاوحيا أومن وراء حجاب ، أويرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى

ماالـكتاب ولا الإيمان ؛ ولـكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » . .

***

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحى والرسالة فى سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفى هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للبشرين ممثلة فى الرسالةالأخيرة ، ورسولها ،والأمة المسلمة التى تتبع نهجه الإلهى الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » . .لتقرر مركز القيادة الجديدة التى سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفى الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ماقرر فى الإشارة الأولى وحدة المصدر : « شرع لـكم من الدين ماوصى بهنوحا والذى أوحينا إليك وماوصينابه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » . .

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الـكرام ولـكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا : « وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم » . .

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : « وإن الذين أورثوا الـكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

وعند هذا الحديتبين أن البشرية قدآلت إلى فوضى وارتياب ،ولم تعد لها قيادةراشدةتقوم على نهج ثابت قويم . . فرسالة السماء التى تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها فى ريبة وفى شك لاتستقيم معهما قيادة راشدة .

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه القيادة : «فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ... الخ » . .ومن ثم تجىء صفة الجماعة المؤمنة المميزة لها طبيعية فى سياق هذه السورة ـ فى الدرس الثانى ـ بوصفها الجماعة التى ستقوم على قيادة هذه البشرية على ذلك النهج الثابت القويم .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسى والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحا . .

***

« حم . عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له مافى السماوات ومافى الأرض ، وهو العلى العظيم . تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . .

سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور بما فيه الكفاية . وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ، ويليها قوله تعالى :

« كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . .

أى مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك . فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التى يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها ؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحى . وحدة مصدره فالموحى هو الله العزيز الحكيم . والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : « إليك وإلى الذين من قبلك » . .

إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة فى أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة — على هذا النحو — حين تستقر فى ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ماهم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هذا الوحى : « الله العزيز الحكيم » . . كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحى فى كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ ، وتمتد جذورها فى شعاب الزمن ؛ وتتصل كلها بالله فى النهاية ، فيلتقون فيه جميعا . وهو « العزيز » القوى القادر « الحكيم » الذى يوحى لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير . فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ؛ ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد فى صفة الله الذى يوحى وحده إلى الرسل جميعا ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما فى السماوات ومافى الأرض ، وأنه وحده العلى العظيم :

« له مافى السماوات ومافى الأرض ، وهو العلى العظيم » . .

وكثيرا ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئا ، لمجرد أنهم يجدون أشياء فى أيديهم، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها . فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكا حقيقيا . إنما الملك الحقيقى لله ؛ الذى يوجد ويعدم ، ويحيى ويميت ؛ ويملك أن يعطى البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما فى أيديهم من شيء ، وأن يضع فى أيديهم بدلا مما أذهب . . الملك الحقيقى لله الذى يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلبى وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل مافى السماوات ومافى الأرض من شيء «لله» بهذا الاعتبار الذى لايشاركه فيه أحد سواه . . « وهو العلى العظيم » . . فليس هو الملك فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك . العلو الذى كل شيء بالقياس إليه سفول ؛ والعظمة التى كل شيء بالقياس إليها ضآلة !

ومتى استقرت هذه الحقيقة استقرارا صادقا فى الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب . فكل مافى السماوات ومافى الأرض لله . والمالك هو الذى بيده العطاء . ثم إنه هو « العلى العظيم » الذى لا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدها للمخاليق ، وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء !

ثم يعرض مظهرا لخاوص الملكية لله فى الكون ، وللعلو والعظمة كذلك. يتمثل فى حركة السماوات تكاد تتفطر من روعة العظمة التى تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من فى الأرض عنها . كما يتمثل فى حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم :

« تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . .

والسماوات هى هذه الخلائق الضخمة الهائلة التى نراها تعلونا حيثما كنا على ظهر هذه الأرض، والتى لانعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض مافى السماوات نحو من مئة ألف مليون مجموعة من الشموس . فى كل منها نحو مئة ألف مليون شمس كشمسنا هذه، التى مبلغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ! وهذه المجموعات من الشموس التى أمكن لنا — نحن البشر — أن نرصدنا بمراصدها الصغيرة ، متناثرة فى فضاء السماء

مبعثرة،وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين من السنوات الضوئية.أى المحسوبة بسرعة الضوء ، التى تبلغ ١٦٨,٠٠٠ ميل فى الثانية !

هذه السماوات التى عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكدن يتفطرن من فوقهن . . من خشيه الله وعظمته وعلوه ، وإشفاقا من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التى يحسها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه !

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » . .

والملائكة أهل طاعة مطلقة ، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة.ولكنهم دائبون فى تسبيح ربهم،لما يحسون من علوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير فى حمده وطاعته . ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ؛ ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع فى الأرض من معصية وتقصير . ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا ، كالذى جاء فى سورة غافر : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا » . . وفى هذه الحالة يبدو : كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع فى الأرض ، حتى من الذين آمنوا ، وكم يرتاعون لها ، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعارا لعلوه وعظمته ؛ واستهوالا لأية معصية تقع فى ملكه ؛ واستدرارا لمغفرته ورحمته ؛ وطمعا فيهما :

« ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . .

فيجمع إلى العزة والحكمة ، العلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة . . ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته .

وفى نهاية الفقرة — بعد تقرير تلك الصفات وأثرها فى الكون كله — يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس فى الكون غيره من ولى . ليعفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أمرهم ، فما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . .

وتبدو للضمير صورة هؤلاء المناكيد التعساء ؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء ؛ وأيديهم مما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء ! تبدو للضمير صورتهم — فى ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم فى قبضته ضعاف صغار . فأما النبى — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنون معه،فهم معفون من التفكير فى شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام .

ولابد أن تستقر هذه الحقيقة فى ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب فى جميع الأحوال.سواء كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر فى الأرض، أم كانوا من غير ذوى السلطان . تطمئن فى الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر — مهما تجبروا — ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله ؛ والله حفيظ عليهم ؛ وهو من ورائهم محيط ؛ والكون كله مؤمن بربه من حولهم ، وهم وحدهم المنحرفون كالنغمة النشاز فى اللحن المتناسق ! وتطمئن فى الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر فى تولى هؤلاء غير الله ؛ فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق ؛ وليس عليهم إلا النصح والبلاغ. والله هو الحفيظ على قلوب العباد .

ومن ثم يسير المؤمنون فى طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحى الله . وأن ليس عليهم من ضير فى انحراف المنحرفين عن الطريق . كائنا ما يكون هذا الانحراف . .

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولا نصير. أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى .وهو يحيى الموتى . وهو على كل شىء قدير» . .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ... » . .

يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحى على ذاك الطرف الذى بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية ، وهذا قرآنهم العربى . نزل الله به وحيه فى هذه الصورة العربية ، ليؤدى به الغاية المرسومة :

« لتنذر أم القرى ومن حولها » . .

وأم القرى مكة المكرمة. المكرمة ببيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هى — وماحولها من القرى — موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده . و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وحين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها ،ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ماسارت هذه الدعوة فى الخط الذى سارت فيه ، وأنتجت فيه نتاجها .. حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفا من حكمة الله فى اختيار هذه البقعة من الأرض، فى ذلك الوقت من الزمان ،

لتكون مقر الرسالة الأخيرة، التي جاءت للبشرية جميعا. والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة ــ عند مولد هذه الرسالة الأخيرة ــ تكاد تتقسمها امبراطوريات أربعة : الامبراطورية الرومانية في أوربا وطرف من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الاسلام ــ اليهودية والنصرانية ــ قد انتهتا إلى أن تقعا ــ في صورة من الصور ــ تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة، ولا تسيطران على الدولة ! فضلا على ما أصابهما من انحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ؛ وانتهت ــ بسبب عوامل شتى ــ إلى أن تكون ديانة مغلقة على بني إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوبا أخرى !

وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية . التي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية سرا ؛ وهي تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهادا فظيعا ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة . فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني ، ودخل الامبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيرا بالديانة ؛ وظلت هي المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلا . وذلك كله فضلا على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل ــ فيما بينها ــ مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقا . وأوقع في الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمي للدولة . وهؤلاء وهؤلاء كانوا في الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء !

وفي هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمور . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله على هدى وعلى نور . ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة

الضخمة فى حياة البشر . فلم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ؛ بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات، هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التى جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هنالك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل فى الجزيرة . تقف للعقيدة الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعا دقيقا ، كما هو الحال فى الامبراطوريات الأربعة .

ولم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام. ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان دينى عام فى الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذى يقف وقفة حقيقية فى وجه الدين الجديد .ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ماوقفوا هذه الوقفة فى وجه الإسلام . فقد كانوا يدركون مافى عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسى للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الدينى ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحررا من كل سلطان عليه فى نشأته ، خارج عن طبيعته .

وفى وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية فى الجزيرة قيمتها كذلك فى حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلى هو السائد . وكان للعشيرة وزنها فى هذا النظام . فلما قام محمد — صلى الله عليه وسلم — بدعوته وجد من سيوف بنى هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلى فرصة ، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بنى هاشم بسبب حمايتهم لمحمد — صلى الله عليه وسلم — وهم على غير دينه . بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا فى أول الدعوة ، وتدع تأديبه — أو تعذيبه — لأهله أنفسهم . والموالى الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم . ومن ثم كان أبو بكر — رضى الله عنه — يشترى هؤلاء الموالى ويعتقهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم . . ولا يخفى مافى هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربى نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهى استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقد كانت الجزيرة فى ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة؛ وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها فى ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطوريتى كسرى وقيصر . وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال . المذكورتان فى القرآن فى قوله تعالى: «لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . . وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التى اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة المختزنة ، التى كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ؛ ففتحها الله بمفتاح الإسلام . وجعلها رصيدا له وذخرا . ولعل هذا بعض مايفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام فى الصحابة فى الجيل الأول فى حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أمثال : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . وحمزة والعباس وأبى عبيدة . وسعد ابن أبى وقاص وخالد ابن الوليد وسعد ابن معاذ ، وأبى أيوب الأنصارى وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التى تلقت الإسلام ؛ فتفتحت له ، وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ؛ ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل فى وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة ،وصيانة نشأتها، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة ، التى جاءت للبشرية جميعها . وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة — صلى الله عليه وسلم — فذلك أمر يطول . ومكانه رسالة خاصة مستقلة . وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التى يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربيا لينذر أم القرى ومن حولها . فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ؛ وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنسانى الذى قام على أساسها ، للبشرية جميعها — كما هى طبيعة هذه الرسالة — وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول — صلى الله عليه وسلم —حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ؛ ويتمحض هذا المهد للعقيدة التى اختير لها على علم . كما اختير لها اللسان الذى يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعا . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه

الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعى ماصلحت لحمل هذه الدعوة أولا ، وماصلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيا .. وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيئتها ، أصلح ماتكون لهذا الحدث الكونى العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة ، حيثما وجه الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

« لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير » ..

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارا فى القرآن هو الإنذار بيوم الجمع . يوم الحشر . يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . بحسب عملهم فى دار العمل ، فى هذه الأرض ، فى فترة الحياة الدنيا .

« ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون مالهم من ولى ولا نصير » ..

فلوشاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار . ولكنه ـ سبحانه ـ خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة فى هذه الأرض . وجعل من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذى أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن غيرهما من خلق الله ذوى الطبيعة المفردة الوحدة الاتجاه . استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيىء . كل منها يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة فى طبيعة تكوين هذا المخلوق البشرى ؛ وينتهى إلى النهاية المقررة لهذا السلوك : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .. وهكذا : « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولانصير » ..وفق مايعلمه الله من حال هذا الفريق وذاك ، واستحقاقه للرحمة بالهداية أو استحقاقه للعذاب بالضلال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر هنا أن الظالمين : « مالهم من ولى ولا نصير » .. فأولياؤهم الذين يتخذونهم لاحقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل فى استنكار :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ » ..

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولى،وأنه هو القادر تتجلى قدرته فى إحياء الموتى . العمل الذى تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

« فالله هو الولى ، وهو يحيي الموتى » . .

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شىء والتى لاتنحصر فى حدود :

« وهو على كل شىء قدير » . .

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التى يرجع إليها عند كل اختلاف . وهى هذا الوحى الذى جاء من عند الله يتضمن حكم الله كى لايكون للهوى المتقلب أثر فى الحياة بعد ذلك المنهج الإلهى القويم :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » . .

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها فى هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفى والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : «وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله» . . والله أنزل حكمه القاطع فى هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل فى أمر الدنيا والآخرة ؛ وأقام للناس المنهج الذى اختاره لهم فى حياتهم الفردية والجماعية ، وفى نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبين لهم هذا كله بيانا شافيا . وجعل هذا القرآن دستورا شاملا لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا اختلفوا فى أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر فى هذا الوحى الذى أوحاه إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتقوم الحياة على أساسه .

وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلما أمره كله لله ، منيبا إلى ربه بكليته :

« ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . .

فتجىء هذه الإنابة ، وذاك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موضعها النفسى المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة . . فهاهو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه ينيب إليه دون سواه . فكيف يتحاكم الناس إذن

إلى غيره عند اختلافهم فى شىء من الأمر ، والنبى المهدى لايتحاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتحاكم الناس إلى قوله الفصل ، لايتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك ؟ وكيف يتجهون فى أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبى المهدى يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ، بما أنه هو ربه ومتولى أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معالمه،فلا يتلفت هنا أو هناك. ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحتار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه فى هذا الاتجاه . والنبى المهدى سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجا آخر أو طريقا يصح أن يتلفت إليه ؟ ولا يجد أن هنالك حكما غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبى المهدى ينيب إلى ربه الذى شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقرارا وتمكينا :

« فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء . وهو السميع البصير » . .

فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شىء .. هو «فاطر السماوات والأرض » . . وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذى يحكم السماء والأرض هو حكمه الفصل فى كل مايختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هى إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذى ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا فى سلام مع الكون الذى يحيط بهم ، والذى يحكم الله فى أمره بلا شريك .

والله الذى يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شىء هو خالقهم الذى سوى نفوسهم ، وركبها : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » . . فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذى أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التى اختارها للأحياء جميعا : « ومن الأنعام أزواجا » . . فهنالك وحدة فى التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود . إنه هو الذى جعلكم — أنتم والأنعام — تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعا ، فليس هنالك من شىء يماثله — سبحانه وتعالى — : « ليس كمثله شىء » . . والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لاتماثله هذه الأشياء التى هى من خلقه..ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف

فيا بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه ـ سبحانه ـ « ليس كمثله شيء » . . فإن الصلة بينه وبين ماخلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر : « وهو السميع البصير » . . ثم يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيا يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد مافطرها أول مرة،وشرع لها ناموسها الذى يدبرها: « له مقاليد السماوات والأرض » .. وهم بعض مافى السماوات والأرض ، فمقاليدهم إليه.

ثم إنه هو الذى يتولى أمر رزقهم قبضا وبسطا ـ فيا يتولى من مقاليد السماوات والأرض ـ: « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيا يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف فى الأرزاق . الذى يدبر هذا كله بعلم وتقدير : « إنه بكل شيء عليم » . . والذى يعلم كل شيء هو الذى يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل ..

وهكذا تتساوق المعانى وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة؛لتوقع على القلب البشرى دقة بعد دقة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق !

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ماتدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ـ بغيا بينهم ـ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » . .

لقد جاءفى مطلع السورة: «كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم» . . فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ، ووحدة النهج ، ووحدة الاتجاه . فالآن يفصل هذه الإشارة ؛ ويقرر أن ماشرعه الله للمسلمين هو — فى عمومه — ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على النهج الإلهى القديم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم، ودحض حجة الذى يحاجون فى الله، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد.

ويبدو من التماسك والتناسق فى هذه الفقرة كالذى بدا فى سابقتها بشكل ملحوظ :

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . .

وبذلك يقرر الحقيقة التى فصلناها فى مطلع السورة . حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان . ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن . وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتدة من بعيد . فإذاهم على التتابع هؤلاء الكرام . . نوح . إبراهيم . موسى . عيسى ، محمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير . إنه سيستروح السير فى الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونصب ، وحرمان من أعراض كثيرة . وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين على شرعه الثابت ؛ وانتفاء الخلاف والشقاق ؛ والشعور بالقربى الوثيقة ، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر ، والسير جملة فى الطريق .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . فيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع : «أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » ؟ فيقيموا الدين ، ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ؛ ويقفوا تحت

رايته صفا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى — صلوات الله عليهم — حتى انتهت إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — فى العهد الأخير .

ولـكن المشركين فى أم القرى ومن حولها — وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم — كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفا آخر :

« كبر على المشركين ماتدعوهم إليه » . .

كبر عليهم أن يتنزل الوحى على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل « على رجل من القريتين عظيم » أى صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تـكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت فى قريش . ما كان هذا كله يعدل فى نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهى سلطانهم الدينى بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التى يقوم عليها هذا السلطان؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية. فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذى دعاهم إليه الرسول الـكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين !

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذى يصطفى ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدى إليه من يرغب فى كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

« الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » . .

وقد اجتبى محمدا — صلى الله عليه وسلم — للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب .

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، فتفرق أتباعهم شيعا وأحزابا :

« وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم — بغيا بينهم — ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أوتوا الـكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ماجاءهم العلم . تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما

للحقيقة ولأنفسهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ماتفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذا عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم فى هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم » . . فحق الحق وبطل الباطل ؛ وانتهى الأمر فى هذه الحياة الدنيا . ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التى ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبى ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة مثارا لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هى الصخرة الصلبة التى يقف عليها المؤمن ، فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التى لا تميد . والعقيدة هى النجم الهادى الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشىء ولا لأمر فى نفس صاحبها ، ولا قرار له على وجهة ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر فى غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذاهم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندى أبو الحسن الندوى فى كتابه : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» :

« أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين

حياتها ، لاتملك مشرعا صافيا من الدين السماوى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى » [1]

ويقول الكاتب الأوربى « ج .هـ . دنيسون» فى كتابه «العواطف كأساس للحضارة»[2] :

« فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ؛ ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى ، التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لاقانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » . . يعنى محمدا ــ صلى الله عليه وسلم . .

ولأن أتباع الرسل تفرقوا ــ من بعد ماجاءهم العلم ــ ولأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم كانوا فى شك منه مريب . . لهذا وذلك ، ولخلو مركز القيادة البشرية من قائد ثبت مستيقن يعرف طريقه إلى الله . . أرسل الله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ووجه إليه الأمر أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المصطرعة حوله وحول دعوته الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التى شرعها الله للنبيين أجمعين :

« فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب. وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لاحجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » . .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء.القيادة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التى تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتى ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك

---

(١) صفحة ٢٢ الطبعة الثانية

(٢) ترجمة "Emotion as the Basis of Civilisation"

الأصل الواحد : « وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » . . ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل . « وأمرت لأعدل بينكم » . . فهى قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل فى الارض بين الجميع . (هذا والدعوة بعد فى مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هى وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) . وتعلن الربوبية الواحدة : « الله ربنا وربكم » ..وتعلن فردية التبعة : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .. وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل : « لاحجة بيننا وبينكم » . . وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير : « الله يجمع بيننا وإليه المصير » . .

وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، فى مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق . فهى رسالة جاءت لتمضى فى طريقها لاتتأثر بأهواء البشر . وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة فى الأرض . وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو فى حقيقته موحد على مدى الرسالات . .

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكرا لايستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب . فتنتهى هذه الفقرة بالفصل فى أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد :

« والذين يحاجون فى الله . من بعد ما استجيب له . حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » . .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولاسلطان . ووراء الهزيمة والبطلان فى الأرض ، الغضب والعذاب الشديد فى الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

***

ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :

« الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب » . .

فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ وأقام شرائعه على العدل فى الحكم . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة. والمناسبة بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هى موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدرى إن كانت على وشك :

« وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ » . .

والناس عنها غافلون ، وهى منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل، الذى لا يهمل فيه شىء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :

« يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » . .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ؛ فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هى حين تكون .

وإنها لحق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

« ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » . .

فقد أوغلوا فى الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذى يتفضل الله به على عباده :

« الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » . .

وتبدو المناسبة بعيدة فى ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك . ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . .

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء

البشر أعجز من آن يرزقوا أنفسهم شيئا ؟ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ؟ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعا وعريا وعطشا ، وعجزا عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا فى الحياة الدنيا ما يحسب لهم فى الآخرة أو عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنة وابتلاء . يجزى عليهما الناس يوم الجزاء .

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما مايشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله فى حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له فى هذه الأرض لا يحرم منه شيئا . بل إن هذا الرزق الذى يعطاه فى الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله فى تثميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه . . ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئا . ولكن لم يكن له فى الآخرة نصيب . فهو لم يعمل فى حرث الآخرة شيئا ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماقة فى إرادة حرث الدنيا ! فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء . فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له فى علم الله . ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل فيه !

ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . فى هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين فى قضية الرزق . إنما يظهر الاختلاف والامتياز هناك ! فمن هو الأحمق الذى يترك حرث الآخرة . وتركه لايغير من أمره شيئا فى هذه الحياة؟!

والأمر فى النهاية مرتبط بالحق والميزان الذى نزل به الكتاب من عند الله . فالحق والعدل ظاهران فى تقدير الرزق لجميع الأحياء . وفى زيادة حرث الآخرة لمن يشاء . وفى حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء . . .

***

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم . ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، لهم مايشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ؛ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور » . .

فى فقرة سابقة قرر أن ماشرعه الله للأمة المسلمة هو ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — وفى هذه الفقرة يتساءل فى استنكار عما هم فيه وماهم عليه ، من ذا شرعه لهم مادام الله لم يشرعه ؟ وهو مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات ؟

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ » . .

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ماشرعه الله وأذن به كائنا من كان ؛ فالله وحده هو الذى يشرع لعباده . بما أنه — سبحانه — هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التى اختارها له . والحياة البشرية إن هى إلا ترس صغير فى عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغى أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أولا يقتنعون بها ، وهم يجرأون على استمداد التشريع من غير ماشرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذى ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم مالم يأذن به الله ! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله !

لقد شرع الله للبشرية مايعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذى تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع فى هذا كله أصولا ، وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة ، فى حدود المنهج الكلى والتشريعات

العامة . فإذا ما اختلف البشر فى شىء من هذا ردوه إلى الله ؛ ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التى شرعها للناس ، لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئى وكل تطبيق .

بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام .

« ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم » . .

فقد قال الله كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لقضى الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء .

« وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . .

فهذا هو الذى ينتظرهم جزاء الظلم. وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عداه؟

ومن ثم يعرض هؤلاء الظالمين فى مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون :

« ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » . .

والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم « مما كسبوا » فكأنما هو غول مفزع ؛ وهو هو الذى كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون « وهو واقع بهم » . . وكأنه هو بذاته انقلب عذابا لامخلص منه ، وهو واقع بهم !

وفى الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون. نجدهم فى أمن وعافية ورخاء :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . .

والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء : « فى روضات الجنات » .. « لهم ما يشاءون عند ربهم» بلا حدود ولا قيود . « ذلك هو الفضل الكبير » .. «ذلك الذى يبشر الله عباده» فهو بشرى حاضرة، مصداقا للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يقول

لهم : إنه لايطلب منهم أجرا على الهدى الذى ينتهى بهم إلى هـذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هى مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجرا :

« قل : لاأسألكم عليه أجرا . إلا المودة فى القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور » . .

والمعنى الذى أشرت إليه ، وهو أنه لايطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى — وقد كانت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرابة بكل بطن من بطون قريش — ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى !

هذا المعنى هو الذى انقدح فى نفسى وأنا أقرأ هـذا التعبير القرآنى فى مواضعه التى جاء فيها . وهناك تفسير مروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أثبته هنا لوروده فى صحيح البخارى :

قال البخارى حدثنا محمد ابن بشار ، حـدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك ابن ميسرة ، قال : سمعت طاووسا يحدث عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه سأل عن قوله تعالى : « إلا المودة فى القربى » فقال سعيد بن جبير : « قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت . إن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة » .

ويكون المعنى على هذا : إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة . وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه . فيكون هذا هو الأجر الذى أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس — رضى الله عنهما — أقرب من تأويل سعيد ابن جبير — رضى الله عنه — ولكننى ما أزال أحس أن ذلك المعنى أقرب وأندى . . والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يذكرهم — أمام مشهد الروضات والبشريات — أنه لا يسألهم على شىء من هذا أجرا . ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجرا ضخما ! ولكنه فضل الله الذى لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل:

« ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » . .

فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل . . ثم هى بعد هذا كله المغفرة والشكر :

« إن الله غفور شكور » . .

الله يغفر . ثم . . الله يشكر . . ويشكر من ؟ يشكر لعباده . وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم فى الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فيالفيض الذى يعجز الإنسان عن متابعته . فضلا على شكره وتوفيته !

* * *

ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور » .

هنا يأتى على الشبهة الأخيرة ، التى قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحى ، الذى تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته فى الجولات الماضية :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ » . .

فهم من ثم لايصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شىء من الله ؟

ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذى جاء به ويمحوه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته :

« فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته »

وماكان ليخفى عليه ما يدور فى خلد محمد — صلى الله عليه وسلم — حتى قبل أن يقوله :

« إنه عليم بذات الصدور » . .

فهى شبهة لاقوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المعهود عن علم الله بالسرائر ، وعن قدرته على مايريد ، وعن سنته فى إقرار الحق وإزهاق الباطل . . وإذن فهذا الوحى حق ، وقول محمد صدق ؛ وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال . . وبذلك ينتهى القول — مؤقتا — فى الوحى . ويأخذ بهم فى جولة أخرى وراء هذا القرار .

« وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُوعَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

« وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ؛ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ـ إِذَا يَشَاءُ ـ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

« وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ، وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ .

« وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ : هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ؛ وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .

« اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ .

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

هذا القسم الثاني من السورة يمضي في الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفي صفة المؤمنين التي تميز جماعتهم .. وذلك بعد الحديث في القسم الأول عن الوحي والرسالة من جوانبها المتعددة .. ثم يعود في نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبين القسمين اتصال ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشري ، يصلانه بالوحي والإيمان .

* * *

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ماتفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض . ولكن ينزل بقدر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير » . .

تجىء هذه اللمسة بعد ماسبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم،ومشهد الذين آمنوا فى روضات الجنات . ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذوات الصدور .

تجىء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى فى الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فالله يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛ فلا داعى للقنوط واللجاج فى المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفى ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم،وهو يزيدهم من فضله . «والكافرون لهم عذاب شديد » .. وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن يستجيب .

وفضل الله فى الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده فى الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه ــ سبحانه ــ من أن هؤلاء البشر لا يطيقون ــ فى الأرض ــ أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير » . .

وهذا يصور نزارة مافى هذه الحياة الدنيا من أرزاق ــ مهما كثرت ــ بالقياس إلى مافى الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده . هؤلاء البشر . لايطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم فى الرزق ــ من نوع مايبسط فى الآخرة ــ لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم فى هذه الأرض مقدرا محدودا ، بقدر مايطيقون . واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون فى بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .

***

« وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » ..

وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده فى الأرض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول .. الماء .. وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ، ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ، ويدب النشاط ، وتتفرج الأسارير ، وتتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء .. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تتفتح فيها أبواب الرحمة ، فتتفتح أبواب السماء بالماء .. « وهو الولى الحميد » .. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات ..

واللفظ القرآنى المختار للمطر فى هذه المناسبة .. « الغيث » .. يلقى ظل الغوث والنجدة ، وتلبية المضطر فى الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الغيث .. « وينشر رحمته » .. يلقى ظلال النداوة والخضرة والرجاء والفرح ، التى تنشأ فعلا عن تفتح النبات فى الأرض وارتقاب الثمار . ومامن مشهد يريح الحس والأعصاب ، ويندّى القلب والمشاعر ، كمشهد الغيث بعد الجفاف . ومامن مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض تتفتح بالنبت بعد الغيث، وتنتشى بالخضرة بعد الموات .

* * *

« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة . وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير . وماأنتم بمعجزين فى الأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ..

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة تشهد بذاتها على ماجاء الوحى ليشهد به ، فارتابوا فيه واختلفوا فى تأويله . وآية السماوات والأرض لاتحتمل جدلا ولا ريبة . فهى قاطعة فى دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، ومايجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذى أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولاغيره من خلق الله . ولامفر من الاعتراف بمنشىء مدبر . فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواميسها الثابتة .. كل أولئك لايمكن تفسيره عقلا إلا على أساس أن هناك إلها أنشأها ويدبرها . أماالفطرة فهى تتلقى منطق هذا الكون تلقيامباشرا ،وتدركه وتطمئن إليه ، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها!

وتنطوى آية السماوات والأرض على آية أخرى فى ثناياها : « ومابث فيهما من دابة » . . والحياة فى هذه الأرض وحدها ــ ودع عنك مافى السماوات من حيوات أخرى لاندركها ــ آية أخرى. وهى سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد ،فضلا على التطلع إلى إنشائه . سر غامض لايدرى أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! و كل المحاولات التى بذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستر والأبواب ؛ وانحصرت البحوث كلها فى تطور الأحياء ــ بعد وجود الحياة ــ وتنوعها ووظائفها ؛ وفى هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات . فأما ماوراء الستر فبقى سرا خافيا لاتمتد إليه عين ، ولايصل إليه إدراك . إنه من أمر الله . الذى لايدركه سواه .

هذه الأحياء المبثوثة فى كل مكان . فوق سطح الأرض وفى ثناياها . وفى أعماق البحر وفى أجواز الفضاء ــ ودع عنك تصور الأحياء الأخرى فى السماء ــ هذه الأحياء المبثوثة التى لايعلم الإنسان منها إلاالنزر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور . هذه الأحياء التى تدب فى السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء ، لايضل منها فرد واحد ولا يغيب !

وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سربا من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم ، أو سربا من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لايعلم عددها إلا الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله . وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لايطلع عليها إلا الله . وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة فى كل مكان، وقطعان من البشر مبثوثة فى الأرض فى كل مكان . . ومعها خلائق أربى عددا وأخفى مكانا فى السماوات من خلق الله . . كلها . . كلها . . يجمعها الله حين يشاء . .

وليس بين بثها فى السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر . والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع فى لمحة على طريقة القرآن ؛ فيشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهى اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن !

وفى ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم فى هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لايؤاخذهم بكل مايكسبون . ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به، وهم قطاع صغير فى عالم الأحياء الكبير :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

وفى الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ؛ ولكن الله لايؤاخذه بكل مايقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب فى فطرته من دوافع تغلبه فى أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفى الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز فى الأرض ، وماله من دون الله من ولى ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجىء إلى الولى والنصير ؟

* * *

« ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص » . .

والسفن الجوارى فى البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشأه ؟ مَن مِن البشر أو غيرهم يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الريح التى تدفع ذلك النوع من السفن التى كانت معلومة وقتها للمخاطبين (وغير الريح من القوى التى سخرت للإنسان فى هذا الزمان من بخار أوذرة أو ما يشاء الله بعد الآن) من جعلها قوة فى هذا الكون تحرك الجوارى فى البحر كالأعلام ؟ . .

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » . .

وإنها لتركد أحيانا فتهمد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة !

« إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . .

فى إجرائهن وفى ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور . والصبر والشكر كثيرا ما يقترنان فى القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة فى الضراء والسراء .

« أو يوبقهن بما كسبوا » . .

فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذى تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بنى الإنسان !

« ويعف عن كثير » . .

فلا يؤاخذ الناس بكل مايصدر منهم من آثام ، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .

« ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص » . .

لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوبق سفائنهم ، وهم لا يملكون منها نجاة !

وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا ، عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشىء إلا الصلة الوثيقة بالله .

* * *

ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ماأوتوه فى هذه الأرض متاع موقوت فى هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هى التى يدخرها الله فى الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات !

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

لقد سبق فى السورة أن صور القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيا بينهم لاجهلا بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى — عليهم صلوات الله — وهو يشير كذلك إلى أن الذين أورثوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم فى شك منه مريب .

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ فحال أولئك الذين لايتبعون رسولا ولايؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية فى حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التى كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها فى الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرآنا عربيا ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ماوصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقيم بها الجماعة المسلمة التى تهيمن وتقود ؛ وتحقق فى الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله ، وفى الصورة التى يرتضيها .

وهنا فى هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التى تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة فى المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة : « وأمرهم شورى بينهم » .. ممايوحى بأن وضع الشورى أعمق فى حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاما سياسيا للدولة ، فهو طابع أساسى للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازا طبيعيا للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .. مع أن الأمر الذى كان صادرا للمسلمين فى مكة هو أن يصبروا وألايردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم فى القتال . وقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . وذكر هذه الصفة هنا فى آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحى بأن صفة الانتصار من البغى صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد فى الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها فى سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية فى يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهى الصفات التى يجب أن تقوم أولا ، وأن تتحقق فى الجماعة لكى

تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغى أن نتدبرها طويلا .. ماهى ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها فى حياة البشرية جميعا ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغى . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وماقيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات فى نسقها القرآنى .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهى الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ؛ كى لايختلط الأمر فى نفوسهم ، فيختل كل شىء فى تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة :

« وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وماعند الله خير وأبقى » . .

إن فى هذه الأرض متاعا جذابا براقا ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده فى الأرض تلطفا منه وهبة خالصة ، لايعلقها بمعصية ولا طاعة فى هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع ــ ولو فى القليل ــ ويمحق البركة من العاصى ولو كان فى يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لايرفع ولايخفض ، ولايعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولايعتبر بذاته علامة رضى من الله أوغضب . إنما هو متاع . « وماعند الله خير وأبقى » .. خير فى ذاته . وأبقى فى مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ماعند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أوتكاد !

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ فى بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ماهو خير وأبقى..

ويبدأ بصفة الإيمان : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا » .. وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التى لا تقوم فى النفس البشرية معرفة صحيحة لشىء فى هذا الوجود إلا عن طريقها . فعن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد

إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى بارىء الوجود في طاعة واستسلام وسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارىء الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ماتكون للقائد الذي يرتاد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المغانم . إذ يصبح القلب متعلقا بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء ، إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أوذي في الدعوة ؛ ولا يغتر إذا مااستجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير !

ولقد آمنت العصبة الأولى من المسلمين إيمانا كاملا أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيرا عجيبا . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصبة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . عن هذا الإيمان :

« انحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الشرك والكفر ـ فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ؛ وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى، فكان النصر حليفه في كل معركة ؛ وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . . . »[1]

---

(١) ص ٧٣ الطبعة الثانية .

«حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم – بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم – وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة ، وفى اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . »[1]

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول :

« كان الناس عربا وعجما يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لايثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصى بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى؛ فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها فى أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لايزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لايختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؟ فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله مايحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لاتبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة . . .

« ... انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شىء ، يجير ولا يجار

---

(١) ص ٧٤ الطبعة الثانية .

عليه . . . إلى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء فى السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . إلى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن . تغلغل الإيمان فى أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ماحير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشىء غير الإيمان الكامل العميق »(١)

«وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملى على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ؛ حتى إذا جمحت السورة البهيمية فى حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، وخيالا مروعا ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة (٢)» . .

« . . . وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزّع أمام المطامع والشهوات الجارفة ؛ وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا . وقد وقع فى تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ، وماذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان »(٣)

« وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون فى سلك ،

---

(١) ص ٧٥ـ٧٦ الطبعة الثانية . (٢) ص ٧٦ .
(٣) ص ٧٧ .

يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهى . ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم القادة ، واستسلموا للحكم الإلهى استسلاما كاملا ووضعوا أوزارهم،وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم، وأصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا فى الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره »[1]

وهذا هو الإيمان الذى تشير إليه الآية وهى تصف الجماعة التى اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويبرزها :

« وعلى ربهم يتوكلون » . .

وهذا التقديم والتأخير فى تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضى التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد فى أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد فى هذا الوجود يفعل شيئا إلا بمشيئته ، وأنه لاشىء يقع فى هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه فى فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضرورى لكل أحد ، كى يقف رافع الرأس لا يحنى رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش فى الضراء ؛ قرير النفس فى السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذى يحتمل تبعة ارتياد الطريق .

« والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته

---

(١) ص ٨١ .

وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصى ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة فى قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التى أشارت إليها المقتطفات السابقة (ص٧٧) وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة . ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدى به من يشاء فى معترك الشهوات !

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشرى ، فيجعل الحد الذى يصلح به للقيادة ، والذى ينال معه ماعند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لاصغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تخجل والعفو يثير فى القلب الكريم معنى الحياء .

« وإذا ماغضبوا هم يغفرون » ..

وتأتى هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان فى ذنوبه وأخطائه ، فتحبب فى السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ماغضبوا هم يغفرون .

وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لايكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشرى ينبع من فطرته . وهو ليس شرا كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لايحرم الغضب فى ذاته ولايجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده فى الفطرة والطبيعة ، فيعفى الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه فى الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شىء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لايكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكتفى منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، مادام الأمر فى حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

« والذين استجابوا لربهم » ..

فأزالوا العوائق التى تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة فى النفس دون الوصول . ومايقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها .

عوائق من وجودها هى وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحا وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها .. وهذه هى الاستجابة فى عمومها .. ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

« وأقاموا الصلاة » . . .

والصلاة فى هذا الدين مكانة عظمى ، فهى التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وهى صورة الاستجابة الأولى لله . وهى الصلة بين العبد وربه . وهى مظهر المساواة بين العباد فى الصف الواحد ركعا سجدا ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل !

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى — قبل أن يذكر الزكاة :

« وأمرهم شورى بينهم »

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكى . كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة فى حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية فى كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة فى الإسلام ليست سوى إفراز طبيعى للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامى وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى فى الجماعة مبكرا ؛ وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتى للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهى من ألزم صفات القيادة .

.. أما الشكل الذى تتم به الشورى فليس مضبوطا فى قالب حديدى ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع فى حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ، وليست نصوصا حرفية ، إنما هى قبل كل شىء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث فى أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدى إلى شىء .. وليس هذا كلاما

عائما غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة — فى أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أى التفات إلى الأنظمة فيها — تحوى حقائق نفسية وعقلية هى فى ذاتها شىء له وجود وفاعلية وأثر فى الكيان البشرى ، يهيء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة فى الحياة البشرية ؛ ثم تجىء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكى يقوم أى شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لابد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذى فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفى بالحاجة ، ولا تحقق نظاما يصح وصفه بأنه إسلامى ..

ومتى وجد المسلمون حقا ، ووجد الإيمان فى قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامى نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق .

« ومما رزقناهم ينفقون » . .

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التى حددت فى السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيها مبكرا فى حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها .

ولابد للدعوة من الإنفاق . لابد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب المال ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولابد من التكافل فى هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحيانا يكون هذا التكافل كاملا بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث فى أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم فى المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق فى الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق فى عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات..

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

وذكر هذه الصفة فى القرآن المكى ذو دلالة خاصة كما سلف . فهى تقرير لصفة أساسية فى الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغى ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعى بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؛ وتهيمن على حياة البشرية

بالحق والعدل ؛ وهى عزيزة بالله . « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغى وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية فى مكة ، ولمقتضيات تربوية فى حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر فى العهد المكى :

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسى والاجتماعى فى الجزيرة كان وضعا قبليا مخلخلا . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ــ ولم يقع إلا فى الندرة أن وقع اعتداء جماعى على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة ــ كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالبا . ولم يكن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب أن تقع معركة فى كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذى يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة فى صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بنى هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذى حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن فى الشخصية الإسلامية كان يقتضى كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذى يهدف إلى التوازن فى الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضى فى الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر فى مكة . مع تقرير الطابع الأساسى الدائم للجماعة المسلمة : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . .

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة فى الحياة :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » . .

فهذا هو الأصل فى الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كى لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعا يكفه عن الإفساد فى الأرض فيمضى وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة. والعفو لا يكون إلا مع القدرة على جزاء السيئة بالسيئة. فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه فى إصلاح المعتدى والمسامح سواء . فالمعتدى حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجىء ضعفا يخجل ويستحيى ، ويحس بأن خصمه الذى عفا هو الأعلى . والقوى الذى يعفو تصفو نفسه وتعلو. فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز. وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز. فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدى ويذل المعتدى عليه ، وينشر فى الأرض الفساد !

« إنه لا يحب الظالمين » . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد فى الاعتداء ، من ناحية أخرى .

وتوكيد آخر أكثر تفصيلا :

« ولمن انتصر بعد ظلمه، فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم » . .

فالذى ينتصر بعد ظلمه ، ويجزى السيئة بالسيئة ، ولا يعتدى ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان. ولا يجوز أن يقف فى طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغى بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة فى الحالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء ؛ وتجملا لا ذلا:

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

ومجموعة النصوص فى هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغى . وتعلقها بالله ورضاه فى كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعا مميزا للجماعة التى تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ..

***

وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

« ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده ؛ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفى ، وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؛ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل » ..

إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها « ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده » .. فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولى يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذى قدره الله . . والذى يعرض منه مشهدا فى بقية الآية :

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفى » ..

والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز فى يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون فى انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » فى هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أى بارقة للخلاص ا وهم يعرضون على النار « خاشعين » لا من التقوى ولا من الحياء ، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسى الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار : « ينظرون من طرف خفى » .. وهى صورة شاخصة ذليلة .

وفى هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : « وقال

الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » . . وهم هؤلاء الذين خسروا كل شيء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟

ويجيء التعليق العام على المشهد بيانا لمآل هؤلاء المعروضين على النار :

« ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل » . .

فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

***

وفى ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم، ولا نصيراً ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التخلى عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ؛ فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :

« استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ، مالكم من ملجإ يومئذ ومالكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » . .

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذى يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب، وهو لا يحتمل فى نفسه الأذى ؛ وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق !

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » . .

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله . فمال هذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره فى جميع الأحوال :

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير » . .

والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ؛ وهى قريبة من نفس الإنسان؛

والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة في الرزق بالذرية . وهي رزق من عند الله كالمال.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام . وكذلك ذكر : « يخلق ما يشاء » . . فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع . ورد الإنسان ، المحب للخير ، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان : فهو يهب لمن يشاء إناثا (وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجعله عقيما (والعقم يكرهه كل الناس) . . وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته : « إنه عليم قدير » . .

* * *

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التي تدور عليها السورة . حقيقة الوحي والرسالة. يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفي أية صورة يكون. ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير — صلى الله عليه وسلم — لغاية يريدها الله سبحانه . لبهدى من يشاء إلى صراط مستقيم :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » ..

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روي عن عائشة رضي الله عنها : « من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » [1] إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : « وحيا » يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، « أو من وراء حجاب » .. كما كلم الله موسى — عليه السلام — وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلي الله على الجبل « وخر موسى صعقا فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » . .

(١) متفق عليه .

« أو يرسل رسولا » وهو الملك « فيوحى بإذنه مايشاء » بالطرق التى وردت عن رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم .

الأولى : ماكان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ـ صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .. والثانية : أنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمثل له الملك رجلا ، فيخاطبه حتى يعى عنه مايقول. والثالثة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ماشاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم (١) .

هذه صور الوحى وطرق الاتصال .. « إنه على حكيم » .. يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار ..

وبعد فإنه مامن مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى أوحديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة فى أوصالى .. كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التى ليس لها حيز فى المكان ولا حيز فى الزمان ، المحيطة بكل شىء ، والتى ليس كمثلها شىء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة فى المكان والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء ؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلى الأبدى الذى لاحيز له ولاحدود؟ ولا شكل له معهود ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ . .

ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا فى حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟ ! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت فى صورة . وصار لها وجود هو الذى تملك أن تدركه من وجود .

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة

(١) عن « زاد المعاد » للامام شمس الدين أبى عبد الله ابن قيم الجوزية .

التلقى هذه لعظيمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية . . أخى الذى تقرأ هذه الـكلمات ، أأنت معى فى هذا التصور ؟ ! أأنت معى تحاول أن تتصور ؟ ! هذا الوحى الصادر من هناك . أأقول : هناك ؟ ! كلا . إنه ليس هناك « هناك » ! الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز ولاحد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائى ، الأزلى الأبدى، الصادر من الله ذى الجلال . إلى إنسان .. إنسان مهما يكن نبيا رسولا ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود . . هذا الوحى . هذا الاتصال العجيب . المعجز . الذى لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .. أخى الذى تقرأ هذه الـكلمات . هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارت المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله؟ إننى لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات . وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين ، على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم . وهذه عائشة رضى الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية فتروى عن واحدة منها تقول : « قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ياعائشة . هذا جبريل يقرئك السلام » قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى مالا نرى [1]» . وهذا زيد ابن ثابت — رضى الله عنه — يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على فخذه ، وقد جاءه الوحى فثقلت حتى كادت ترض فخذه . وهؤلاء هم الصحابة — رضوان الله عليهم — فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه فى وجه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فيدعونه للوحى حتى يسرى عنه ، فيعود إليهم ويعودون إليه . . .

ثم ..أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الـكريم ؟أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى ، ويختلط بذلك العنصر ، ويتسق مع طبيعته وفحواه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولـكنها تتراءى هنالك بعيدا على أفق عال ومرتقى صاعد ، لاتكاد المدارك تتملاه !

روح هذا النبى — صلى الله عليه وسلم — روح هذا الإنسان . كيف ياترى كانت تحس بهذه

---

(١) أخرجه البخارى .

الصلة وهذا التلقى ؟ كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله على الوجود ؟ والتى تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟

ثم .. أية رعاية؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟..والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان . فيوحى إليها لإصلاح أمرها ، وإنارة طريقها ، ورد شاردها .. وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟ !

إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا تطلعا إلى الأفق السامق الوضىء :

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

« وكذلك » . بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال . « أوحينا إليك » .. فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا . أوحينا إليك « روحا من أمرنا » .. فيه حياة ، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود . « ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان » .. هكذا يصور نفس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى. وقد سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم —عن الكتاب وسمع عن الإيمان، وكان معروفا فى الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير. وهذا مالم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد — عليه صلوات الله .

« ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء » .. وهذه طبيعته الخالصة. طبيعة هذا الوحى. هذا الروح.هذا الكتاب.إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » . . وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى ، بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لايعرفه سواه ؟ والرسول — صلى الله عليه وسلم — واسطة لتحقيق

مشيئة الله ، فهو لا ينشىء الهدى فى القلوب ؛ ولـكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له مافى السماوات وما فى الأرض » ..
فهى الهداية إلى طريق الله ، الذى تلتقى عنده المسالك ، لأنه الطريق إلى المالك ، الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ؛ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السماوات والأرض ، وقوى السماوات والأرض ، ورزق السماوات والأرض ، واتجاه السماوات والأرض إلى مالـكها العظيم . الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير :

« ألا إلى الله تصير الأمور » . .

فـكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره .

وهذا النور يهدى إلى طريقه الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين .

* * *

وهكذا تنتهى السورة التى بدأت بالحديث عن الوحى . وكان الوحى محورها الرئيسى - وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق. ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتـكل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ، الذى تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم . .

سورة الزخرف مكية وآياتها ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ، وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ؟ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ؟ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً . أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

« وَقَالُوا : لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَاعَبَدْنَاهُمْ . مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ؟ * بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » . .

تعرض هذه السورة جانبا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ؛ وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائما فى النفوس فى كل زمان ومكان .

كانت الوثنية الجاهلية تقول : إن فى هذه الأنعام التى سخرها الله للعباد ، نصيبالله ، ونصيبا لآلهتهم المدعاة . « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله — بزعمهم — وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » . . وكانت لهم فى الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشىء من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب — وأنواع محرمة لحومها على الأكل : « وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء — بزعمهم — وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء على الله » . .

وفى هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهى طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعا . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ؛

لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم فى الأنعام مالم يأمر به الله ؟ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ؟ ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التى يقرون بها ، ويعزلونها عن حياتهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون،لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ؟ ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

وفى هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؟ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التى لا تستند إلى شىء على الإطلاق : « وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمان ما عبدناهم ! مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ! » . .

ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناما وأشجارا وإنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم ، وقيل لهم : إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه فى النار . حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا : فما بال عيسى وقد عبده قومه ؟ أهو فى النار ؟ ! ثم قالوا : إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن فى عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس !

وفى هذه السورة يكشف عن التوائهم فى هذا الجدل ؟ ويبرىء عيسى — عليه السلام — مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه برىء : «ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون.

وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ماضربوه لك إلاجدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلاعبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ... » ..

وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم،وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم فى هذه الجاهلية الوثنية يخبطون !

فبين لهم فى هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية فى عقبه ، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغى من ذرية إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلاالذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون ... » ..

ولم يدركوا حكمة اختيار الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووقفت فى وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التى اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفى هذه السورة يحكى تصوراتهم وأقوالهم فى هذا الصدد ؛ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية، وزهادة القيم التى يعتبرونها هم ويرفعونها : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ،ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا .وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين » ..

ثم جاء بحلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ، يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذى اعتز بها ،ونهايته التى تنتظر المعتزين بمثل مااعتز به:« ولقد أرسلناموسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إنى رسول رب العالمين. فلما جاءهم بآياتنا إذاهم منها يضحكون . ومانريهم من آية إلاهى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالو: ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال : ياقوم أليس لى ملك مصر ،

وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين؛ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » . .

***

حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية ،وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة، تدور السورة، وتعالجها على النحو الذى تقدم . فى أشواط ثلاثة تقدم أولها ــ قبل هذا ــ وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى فى بعض المقتطفات من آيات السورة . فلنأخذ فى التفصيل :

« حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ وكم أرسلنا من نبى فى الأولين. وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . .

تبدأ السورة بالحرفين : « حا . ميم » ثم يعطف عليهما قوله : « والكتاب المبين » . . ويقسم الله ــ سبحانه ــ بحاميم كما يقسم بالكتاب المبين . وحاميم من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا ميم . فهذا الكتاب المبين فى صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان ــ كبقية الأحرف فى لسان البشر ــ آية من آيات الخالق ، الذى صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة فى ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن .

يقسم الله ــ سبحانه ــ بحاميم والكتاب المبين ، على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب :

« إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . .

فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذى يعرفون . والقرآن وحى الله ــ سبحانه وتعالى ــ جعله فى صورته هذه اللفظية عربيا ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة، للحكمة التى أشرنا إلى طرف منها فى سورة الشورى ؛ ولما يعلمه من صلاحية هذه الأمة وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم يبين منزلة هذا القرآن عنده وقيمته فى تقديره الأزلى الباقى :

« وإنه فى أم الـكتاب لدينا لعلى حكيم » . .

ولا ندخل فى البحث عن الدلول الحرفى لأم الـكتاب ما هى : أهى اللوح المحفوظ ، أم هى علم الله الأزلى . فهذا كهذا ليس له مدلول حرفى محدد فى إدراكنا . ولـكننا ندرك منه مفهوما يساعد على تصورنا لحقيقة كلية . وحين نقرأ هذه الآية : « وإنه فى أم الـكتاب لدينا لعلى حكيم » . . فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن فى علم الله وتقديره . وهذا حسبنا . فهذا القرآن « علىّ » . . « حكيم » . . وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة . وإنه لـكذلك ! وكأنما فيه روح . روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التى تلامسها . وهو فى علوه وفى حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه . وينشىء فى مداركها وفى حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التى تنطبق عليها هاتان الصفتان : على . حكيم .

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التى وهبها الله إياهم ، وقيمة النعمة التى أنعم الله عليهم؛ ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح فى إعراضهم عنها واستخفافهم بها ؛ ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ؛ ومن ثم يعرّض بهم وبإسرافهم ، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف :

« أفنضرب عنـكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ » . .

ولقد كان عجيبا — وما يزال — أن يعنى الله سبحانه — فى عظمته وفى علوه وفى غناه — بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بمافى نفوسهم ، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى الغابرين . . ثم هم بعد ذلك يهملون ويعرضون !

وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته، جزاء إسرافهم القبيح !

وإلى جانب هذا التهديد يذكرهم بسنة الله فى المـكذبين ، بعد إرسال النبيين :

« وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلـكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . .

فماذا ينتظرون هم وقد أهلك الله من هم أشد منهم بطشا ، حينما وقفوا يستهزئون بالرسل كما يستهزئون ؟

* * *

والعجيب ـ كان ـ فى أمر القوم أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ، وخلقه للسماوات والأرض . ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية من توحيد الله ، وإخلاص التوجه إليه . فكانوا يجعلون له شركاء ، يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام ؛ كما كانوا يزعمون أن الملائكة بناته ، ويعبدونهم من دونه فى صورة أصنام !

والقرآن يعرض اعترافهم ، ويرتب عليه نتائجه ، ويوجههم إلى منطق الفطرة الذى يجانبونه ، وإلى السلوك الواجب تجاه نعمته عليهم فيما خلق لهم من الفلك والأنعام . ثم يناقشهم بمنطقهم فى دعواهم عن الملائكة :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا: سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

لقد كانت للعرب عقيدة ـ نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ، ولكنها بهتت وانحرفت ودخلت فيها الأساطير ـ وقد بقى منها ما لا تملك الفطرة إنكاره من وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن ـ فى منطق الفطرة وبداهتها ـ أن يكون هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق ؛ وما يمكن أن يخلق هذا الكون إلا الله . ولكنهم كانوا يقفون بهذه الحقيقة التى تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم ... » . .

وواضح أن هاتين الصفتين : « العزيز العليم » ليستا من قولهم . فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو « الله » . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام . هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثرا فعالا فى حياتهم وحياة هذا الكون . كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك . ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء . لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة .

والقرآن هنا يعلمهم أن الله ، الذى يعترفون بأنه خالق السماوات والأرض ، هو « العزيز

العليم » .. فهو القوى القادر،وهو العليم العارف. فيبدأ بهم من اعترافهم،ويخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف .

ثم يمضى بهم خطوة أخرى فى تعريف الله سبحانه بصفاته ؛ وفى بيان فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء :

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا ، لعلكم تهتدون » . .

وحقيقة جعل هذه الأرض مهدا للإنسان يدركها كل عقل فى كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها فى رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير ، وأمامهم ممهدة للزرع ، وفى عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء . ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة فى مساحة أعرض وفى صورة أعمق ، بقدر ماوصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب ـ لو صحت نظرياتنا فى هذا وتقديراتنا ـ والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة مالم ندرك نحن ؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق ، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم ، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان .

ونحن اليوم ندرك من حقيقة جعل الأرض مهدا لهذا الجنس يجد فيها سبله للحياة أن هذا الكوكب مر فى أطوار بعد أطوار ، حتى صار مهدا لبنى الإنسان . وفى خلال هذه الأطوار تغير سطحه من صخر يابس صلد إلى تربة صالحة للزرع ؛ وتكوّن على سطحه الماء من اتحاد الأيدروجين والأكسوجين ؛ واتأد فى دورانه حول نفسه فصار يومه بحيث يسمح باعتدال حرارته وصلاحيتها للحياة ؛ وصارت سرعته بحيث يسمح باستقرار الأشياء والأحياء على سطحه، وعدم تناثرها وتطايرها فى الفضاء !

ونعرف من هذه الحقيقة كذلك أن الله أودع هذا الكوكب من الخصائص خاصية الجاذبية، فاحتفظ عن طريقها بطبقة من الهواء تسمح بالحياة ؛ ولو أفلت الهواء المحيط بهذا الكوكب من جاذبيته ما أمكن أن تقوم الحياة على سطحه ، كما لم تقم على سطح الكواكب الأخرى التى تضاءلت جاذبيتها ، فأفلت هواؤها كالقمر مثلا ! وهذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشىء من حركة الأرض ؛ فأمكن أن تحفظ الأشياء والأحياء من التطاير والتناثر؛وفى الوقت ذاته تسمح بحركة الإنسان والأحياء على سطح الأرض ؛ ولو زادت الجاذبية

عن القدر المناسب للصقت الأشياء والأحياء بالأرض وتعذرت حركتها أو تعسرت من ناحية ، ولزاد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقها بالأرض إلصاقا ، أو سحقها كما نسحق نحن الذباب والبعوض أحيانا بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا ! ولو خف هذاالضغط عما هو عليه لانفجر الصدر والشرايين انفجارا !

ونعرف كذلك من حقيقة جعل الأرض مهدا وتذليل السبل فيها للحياة ، أن الخالق العزيز العليم قدر فيها موافقات شتى تسمح مجتمعة بوجود هذا الإنسان وتيسير الحياة له ؛ ولو اختلت إحدى هذه الموافقات لتعذرت هذه الحياة أو تعسرت . فمنها هذه الموافقات التي ذكرنا ، ومنها أنه جعل كتلة الماء الضخمة التي تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتصاص الغازات السامة التي تنشأ من التفاعلات الكثيرة التي تتم على سطحها ، والاحتفاظ بجوها دائما في حالة تسمح للأحياء بالحياة . ومنها أنه جعل من النبات أداة للموازنة بين الأكسيجين الذي يستنشقه الأحياء ليعيشوا به ، والأكسيجين الذي يزفره النبات في أثناء عمليات التمثيل التي يقوم بها ؛ ولولا هذه الموازنة لاختنق الأحياء بعد فترة من الزمان !

وهكذا . وهكذا . من المدلولات الكثيرة لحقيقة : « جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا » تتكشف لنا في كل يوم ؛ وتضاف إلى المدلولات التي كان يدركها المخاطبون بهذا القرآن أول مرة . وكلها تشهد بالقدرة كما تشهد بالعلم لخالق السماوات والأرض العزيز العليم . وكلها تشعر القلب البشري باليد القادرة المدبرة ، في حيثما امتد بصره ، وتلفت خاطره ؛ وأنه غير مخلوق سدى ، وغير متروك لقى ؛ وأن هذه اليد تمسك به ، وتنقل خطاه ، وتتولى أمره في كل خطوة من خطواته في الحياة ، وقبل الحياة ، وبعد الحياة !

« لعلكم تهتدون » .. فإن تدبر هذا الكون،وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب . .

ثم يخطو بهم خطوة أخرى في طريق نشأة الحياة والأحياء ، بعد تمهيد الأرض للإنسان وتذليل السبل فيها للحياة :

« والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون » ..

والماء الذي ينزل من السماء يعرفه كل إنسان ويراه كل إنسان ؛ ولكن أكثر الناس يمرون على هذا الحدث العجيب دون يقظة ودون اهتزاز ، لطول الألفة والتكرار . فأما محمد رسول

الله – صلى الله عليه وسلم – فكان يتلقى قطراته فى حب وفى ترحيب وفى حفاوة وفى استبشار؛ لأنها قادمة إليه من عند الله . ذلك أن قلبه الحى كان يدرك صنع الله الحى فى هذه القطرات ، ويرى يده الصناع ! وهكذا ينبغى أن يتلقاها القلب الموصول بالله ونواميسه فى هذا الوجود . فهى وليدة هذه النواميس التى تعمل فى هذا الكون وعين الله عليها ويد الله فيها فى كل مرة وفى كل قطرة . ولايبرد من حرارة هذه الحقيقة ، ولاينقص من وقعها أن هذا الماء أصله البخار المتصاعد من الأرض، المتكاثف فى أجواز الفضاء . فمن أنشأ هذه الأرض ؟ ومن جعل فيها الماء؟ ومن سلط عليها الحرارة ؟ ومن جعل من طبيعة الماء أن يتبخر بالحرارة ؟ ومن أودع البخار خاصية الارتفاع ؛ وخاصية التكثف فى أجواز الفضاء ؟ومن أودع الكون خصائصه الأخرى التى تجعل ذلك البخار المتكثف مشحونا بالكهرباء التى تتلاقى وتتفرغ فيسقط الماء؟وما الكهرباء؟ وماهذا وماذاك من الخصائص والأسرار التى تنتهى كلها إلى نزول الماء ؟ إننا نلقى من العلم على حسنا أثقالا تحجب عنا إيقاع هذا الكون العجيب ، بدلا من أن نتخذ من العلم معرفة ترهف المشاعر وترقق القلوب !

« والذى نزل من السماء ماء بقدر » . .

فهو مقدر موزون لايزيد فيغرق ؛ ولايقل فتجف الأرض وتذبل الحياة ؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة ، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله .

« فأنشرنا به بلدة ميتا » . .

والإنشاء الإحياء . والحياة تتبع الماء . ومن الماء كل شىء حى .

« وكذلك تخرجون » . .

فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ؛ والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة . فالإعادة من البدء ؛ وليس فيها عزيز على الله .

ثم هذه الأنعام التى يجعلون منها جزءاً لله وجزءاً لغير الله ، ومالهذا خلقها الله ؛ إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ، يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ، ويقابلون نعمته بما تستحقها :

« والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

والزوجية هي قاعدة الحياة كما تشير إليها هذه الآية . فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها . بل ربما كانت الزوجية هي قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هي الذرة المؤلفة من ألكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن .

وعلى أية حال فالزوجية في الحياة ظاهرة ؛ والله هو الذي خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان :

« وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » . . .

يذكر الناس بهذه الإشارة بنعمة الله عليهم في اصطفائهم لخلافة هذه الأرض ، وبما سخر لهم فيها من قوى وطاقات . ثم يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وشكر هذا الاصطفاء ؛ وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة،لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة:

« لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .. فما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها ، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام .

ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة في الأرض إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا في هذه الخلافة التي زودهم فيها بأنعمه . وسخر لهم فيها ما سخر من القوى والطاقات :

« وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

هذا هو الأدب الواجب في حق النعم ، يوجهنا الله إليه،لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا ، والتي نتقلب بين أعطافها . . ثم ننساه . . . !

والأدب الإسلامي في هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير . فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان ! إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ؛ وتشعر بيده في كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ، وهو محض الفضل والإنعام ، بلا مقابل منهم ، فما هم بقادرين على شيء يقابلون به فضل الله . ثم لتبقى قلوبهم على وجل من لقائه في النهاية لتقديم الحساب . . وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشري في حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله . ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان .

* * *

بعد ذلك يعالج أسطورة الملائكة واتخاذهم آلهة بزعم أنهم بنات الله ، وهم عباد الله :

« وجعلوا له من عباده جزءا . إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لوشاء الرحمان ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلاقال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أولوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » ..

إن هذا القرآن يحاصر هذه الأسطورة ويواجهها فى نفوسهم من كل جانب ، ولايبقى ثغرة مفتوحة حتى يأخذها عليهم، ويواجههم فى هذا كله بمنطقهم ومسلماتهم وواقع حياتهم، كما يواجههم بمصير الذين وقفوا مثل وقفتهم ، وقالوا مثل قولتهم من الغابرين .

ويبدأ بتصوير سخف هذه الأسطورة وتهافتها ، ومقدار مافى القول بها من كفر صريح :

« وجعلوا له من عباده جزءا ، إن الإنسان لكفور مبين » ..

فالملائكة عباد الله ، ونسبة بنوتهم له معناها عزلهم من صفة العبودية ، وتخصيصهم بقرابة خاصة بالله ؛ وهم عباد كسائر العباد ، لامقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية فى علاقتهم بربهم وخالقهم . وكل خلق الله عباد له خالصو العبودية . وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لاشبهة فيه : « إن الإنسان لكفور مبين » .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبتهم إلى الله :

« أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ » ..

فإذا كان الله — سبحانه — متخذا أبناء ، فإله يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ؟ وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاءون :

« وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ..

أفما كان من اللياقة والأدب ألاينسبوا إلى الله من يستاءون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود

وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حدا يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟ ! أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن ينشأ فى الحلية والدعة والنعومة ، فلا يقدر على جدال ولا قتال ؛ بينما هم — فى بيئتهم — يحتفلون بالفرسان والقاويل من الرجال ؟ !

إنه يأخذهم فى هذا بمنطقهم، ويخجلهم من انتقاء ما يكرهون ونسبته إلى الله . فهلا اختاروا ما يستحسنونه وما يسرون له فنسبوه إلى ربهم ، إن كانوا لابد فاعلين ؟ !

ثم يحاصرهم هم وأسطورتهم من ناحية أخرى . فهم يدعون أن الملائكة إناث . فعلام يقيمون هذا الادعاء ؟

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » . .

أشهدوا خلقهم ؟ فعلموا أنهم إناث ؟ فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه . وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم . ولكنهم يشهدون بهذا ويدعونه ، فليحتملوا تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه : « ستكتب شهادتهم ويسألون » . .

ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار :

« وقالوا : لو شاء الرحمان ما عبدناهم . مالهم بذلك من علم . إن هم إلا يخرصون » . .

إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة . فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ؛ ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعا !

وهذا القول احتيال على الحقيقة . فإن كل شىء يقع فى هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله . هذا حق . ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال . وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال . وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلا للهدى أو الضلال .

وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطا ؛ فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة — ومن أين يأتيهم اليقين ؟ — « مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » . . ويتبعون الأوهام والظنون .

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ » . .

يستندون إليه فى دعواهم ، ويستدون إليه فى عبادتهم ، ويستمسكون بما فيه من حقائق ، ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل ! !

وهكذا يأخذ عليهم الطريق من هذه الناحية ؛ ويوحى إليهم كذلك أن العقائد لا يخبط فيها خبط عشواء ، ولا يرتكن فيها إلى ظن أو وهم . إنما تستسقى من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه .

وعند هذا الحد يكشف عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة المتهافتة التى لا تقوم على رؤية ، ومزاولة هذه العبادة الباطلة التى لا تستند إلى كتاب :

« بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » . .

وهى قولة تدعو إلى السخرية ، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل . وهى صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضى حيث هو منساق ؛ ولا يسأل : إلى أين نمضى ؟ ولا يعرف معالم الطريق !

والإسلام رسالة التحرر الفكرى والانطلاق الشعورى لا تقر هذا التقليد المزرى ، ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازا بالإثم والهوى . فلا بد من سند ، ولابد من حجة ، ولا بد من تدبر وتفكير ، ثم اختيار مبنى على الإدراك واليقين .

وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك واتبعوا طريقهم فى المحاكاة والتقليد، وفى الإعراض والتكذيب، بعد الإصرار على ماهم فيه على الرغم من الإعذار والبيان !

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم : فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » . .

وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » أو « مقتدون » . . ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة ، وتطمس عقولهم دون التدبر لأى جديد . ولو كان أهدى . ولو كان أجدى . ولو كان يصدع بالدليل . وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التى لا تريد أن تفتح عينها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين . .

وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذى يسلكون!

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ؟ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

« أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ

أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا : يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ : قَالَ : يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ » ..

لقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم ــ وهذا حق ــ وإنها على ملة إبراهيم ــ وهذا ما ليس بحق ــ فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد ما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته ، وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع !

وفى هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التى يدعون . . ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التى تخايل لهم وتصدهم عن الحق والهدى . . وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يطلعهم على علة هذا العمي وهو من وسوسة الشيطان . . ويلتفت فى نهاية هذا الدرس إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يسليه ويؤسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم ؛ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذى جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟ » . .

ثم يعرض من قصة موسى ـ عليه السلام ـ حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم . وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضونها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التى يعتز بها المشركون ..

* * *

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون ، إلاالذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ..

إن دعوة التوحيد التى يتنكرون لها هى دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التى واجه بها أباه وقومه مخالفا بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم فى إعلان تبرئه المطلق منها فى لفظ واضح صريح ، يحكيه القرآن الكريم بقوله :

« إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » ..

ويبدو من حديث إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتبرئه مما يعبدون إلاالذى فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلا ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ،فتبرأ من كل مايعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التى تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذى فطره ؛ فقد فطره ليهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التى تقوم بها الحياة. كلمة التوحيد التى يشهد بها الوجود . قالها « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ..

ولقد كان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أكبر قسط فى إقرار هذه الكلمة فى الأرض، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولى العزم ! موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ واليوم بعد عشرات القرون يقوم فى الأرض أكثر من ألف مليون ،من أتباع الديانات الكبرى يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذى جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه ، يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هى باقية لاتضيع ، ثابتة لاتتزعزع ، واضحة لايتلبس بها الباطل « لعلهم يرجعون » . . يرجعون إلى الذى فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه .

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر فى الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولما . فلما عرفتها على لسان إبراهيم ظلت متصلة فى أعقابه ؛ وقام عليها من بعده رسل متصاون لاينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبه أبنائه به [1] : محمد — صلى الله عليه وسلم — خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد فى صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة ، التى تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة ، وتجعل لها أثرا فى كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هى قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذى ينتسبون إليه ؛ وهذه هى كلمة التوحيد التى جعلها إبراهيم باقية فى عقبه . هذه هى تأتى إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم . فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم ؟

لقد بعد بهم العهد ؛ ومتعهم الله جيلا بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل فى أيديهم كل ميزان :

« بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » . .

يضرب السياق عن حديث إبراهيم ، ويلتفت إلى القوم الحاضرين :

« بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » . .

وكأنه بهذا الإضراب يقول : لندع حديث إبراهيم ، فمالهم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر فى

---

(١) عن جابر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضَربٌ من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة ابن مسعود . ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم » . .

شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم فى الأجل ، حتى جاءهم الحق فى هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق فى وضوح وتبيين :

« ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون » . .

ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم، فيقولون : إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، يقولون : « وإنا به كافرون » ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ؛ فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد . شأن الملأ من كل قوم ، فى التغرير بالجماهير، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد، التى يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا الله العلى الكبير !

ثم يحكى القرآن تخليطهم فى القيم والموازين ؛ وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد — صلى الله عليه وسلم — ليحمل إليهم الحق والنور :

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . .

يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقدكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بنى هاشم . وهم فى العلية من العرب . كما كان شخصه — صلى الله عليه وسلم — معروفا بسمو الخلق فى بيئته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة، فى بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعله — سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ؛ فاختار رجلا ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . . وسمته البارزة . . التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة . . ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كى لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها فى شىء . ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكى لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف .

ولكن القوم الذى غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض .

« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

فرد عليهم القرآن مستنكرا هذا الاعتراض على رحمة الله، التى يختارلها من عباده من يشاء؟ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء؛ مبينا لهم عن حقيقة القيم التى يعتزون بها، ووزنها الصحيح فى ميزان الله :

« أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ياعجبا ! ومالهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لايملكون لأنفسهم شيئا، ولايحققون لأنفسهم رزقا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ..

ورزق المعاش فى الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد، وظروف الحياة، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة، ومن عصر لعصر، ومن مجتمع لمجتمع، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه، والتى لم تتخلف أبدا — حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج والتوزيع — أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ماتختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم. ولكن سمة التفاوت فى مقادير الرزق لاتتخلف أبدا . ولم يقع يوما — حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة — أن تساوى جميع الأفراد فى هذا الرزق أبدا: « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ..

والحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ فى جميع العصور، وجميع البيئات، وجميع المجتمعات . . هى :

« ليتخذ بعضكم بعضا سخريا » . .

ليسخر بعضكم بعضا . . ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما .

وليس التسخير هو الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد .. كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور فى أوضاع الجماعة البشرية ؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجىء . . إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض فى كل وضع وفى كل ظرف . المقدر عليه فى الرزق مسخر للمبسوط له فى الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء . والتفاوت فى الرزق هو الذى يسخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا فى دورة الحياة . . العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء . . وكلهم مسخرون للخلافة فى الأرض بهذا التفاوت فى المواهب والاستعدادات ، والتفاوت فى الأعمال والأرزاق . .

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق فى الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضا سخريا !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة فى فطرة هذا الوجود ؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التى لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ؛ والتفاوت فى مدى اتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة فى هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جدا لا تجد لها مقابلا من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها ــ والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت فى الأدوار يتفاوت الرزق ... هذه هى القاعدة . . أما نسبة التفاوت فى الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفى القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية

لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعه المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندى وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهى الذى تقرره هذه الآية من كلام الله . وهى تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش فى هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله :

« ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولاعلاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولاصلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا. فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة.ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث ــ لوشاء الله ــ لأغدقها إغداقا على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله :

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين » ..

فهكذا ــ لولا أن يفتتن الناس.والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا فى قلوبهم ــ لجعل لمن يكفر بالرحمان ــ صاحب الرحمة الكبيرة العميقة ــ بيوتا سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب. بيوتا ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزا لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمان !

« وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » ..

متاع زائل ، لايتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا .

« والآخرة عند ربك للمتقين » ..

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ماهو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمان ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص مايبذله للحيوان !

وإن عرض الحياة الدنيا الذى ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن

الـكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه فى أيدى الفجار ، ويرون أيادى الأبرار منه خالية ؛ أو يرون هؤلاء فى عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك فى قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة فى نفوس الناس . ولـكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه؛ ويكشف لهم كذلك عن نفاسة مايدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئا من عرض هذه الحياة الدنيا ؛ ويقيسون الرجال بما يملـكون من رياسة ، أو بما يملـكون من مال . يرون من هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهى لاتدل على قربى منه ولاتنبىء عن رضى ، ولاتشى باختيار !

وهكذا يضع القرآن الأمور فى نصابها؛ ويكشف عن سنن الله فى توزيع الأرزاق فى الدنيا والآخرة ؛ ويقرر حقيقة القيم كما هى عند الله ثابتة . وذلك فى صدد الرد على المعترضين على رسالة محمد ؛ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !

وهكذا يرسى القواعد الأساسية والحقائق الـكلية التى لا تضطرب ولا تتغير ؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة فى مجالها ؛ ولـكنها لاتخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهى ، الذى يجمع بين الثبات والتغير ، فى صلب الحياة وفى أطوار الحياة ؛ ويحسبون أن التطور والتغير ، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشـكالها . ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تـكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ؛ وينـكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر . فهذا هو القانون الوحيد الذى يؤمنون بثباته ! فأما نحن ـ أصحاب العقيدة الإسلامية ـ فنرى فى واقع الحياة مصداق مايقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين فى كل زاوية من زوايا الـكون، وفى كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت فى الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه فى النظم والمجتمعات .. وهذا التلازم مطرد فى غير هذا المثال [1].

* * *

(١) فكرة الإسلام عن الـكون والحياة والإنسان .. « بحث لم يتم للمؤلف » ..

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن مايعطاه الفجار منها لايدل على كرامة لهم عند الله ، ولايشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين . استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمى عن ذكر الله ، منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين :

« ومن يعش عن ذكرالرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين .وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » . .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالبا مايكون عند مواجهة الضوء الساطع الذى لاتملك العين أن تحدق فيه ؛ أوعند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمان واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

« ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين » . .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقة الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ،ويصبح لهقرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء . وهذا الشرط وجوابه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله فى علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ،بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون :

« وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » . .

وهذا أسوأ مايصنعه قرين بقرين . أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أويتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوهمه أنه سائر فى الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : « ليصدونهم » . . « ويحسبون » . . يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار ؛ يراها الآخرون ، ولايراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لايشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

« حتى إذا جاءنا قال : ياليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين » !

وهكذا ننتقل فى ومضةمن هذه الدنيا إلى الآخرة . ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى (الذين يعشون عن ذكر الرحمان) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده فى طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه فى حنق يقول : « ياليت بيني وبينك بعد المشرقين » ! ياليته لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : « فبئس القرين » !

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

« ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » !

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولايتقاسمه الشركاء فيهون !

* * *

عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، فى مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشاءمون. ويتجه بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذى أوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، فى رسالة كل رسول :

« أفأنت تسمع الصم أوتهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ؟ فإمانذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أونرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون . واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟ » ..

وهذا المعنى يتكرر فى القرآن تسلية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبيانا لطبيعة الهدى والضلال ، ورجعهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجها من نطاق وظيفة الرسل — عليهم الصلاة والسلام — ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ؛ وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، وفى موضع من ألطف مواضعه :

« أفأنت تسمع الصم أوتهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين » ..

وهم ليسوا صما ولا عميا ، ولكنهم كالصم والعمى فى الضلال ،وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدى من يبصر .فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم ، فما للرسول إلى هداهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذى يطيق .

والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود :

«فإمانذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أونرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » ..

والأمر لايخرج عن هذين الحالين. فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ماأنذرهم به ، فالله قادرعلى تحقيق النذير،وهم ليسوا له بمعجزين. ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته فى الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلارسول .

« فاستمسك بالذى أوحى إليك . إنك على صراط مستقيم » ..

واثبت على ماأنت فيه ، وسر فى طريقك لاتحفل ماكان منهم ومايكون . سر فى طريقك مطمئن القلب . « إنك على صراط مستقيم » .. لايلتوى بك ولاينحرف ولا يحيد .

وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلى الذى يقوم عليه هذا الوجود . فهى مستقيمة معه لاتنفرج عنه ولاتنفصل . وهى مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، على استقامة تؤمن معها الرحلة فى ذلك الطريق !

والله ــ سبحانه ــ يثبت رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مها لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق !

« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » ..

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين :

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أوأن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك . وهذا ماحدث فعلا ..

فأما الرسول ــصلى الله عليه وسلمــ فإن مئات الملايين من الشفاه تصلى وتسلم عليه،وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام . ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحفل بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة. وهو الذى جعل لهم دورهم الأكبر فى تاريخ هذه البشرية. وهو الذى واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التى استمسكوا فيها به. فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا؛ وقذفت بهم فى ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين !

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هى تخلت عن الأمانة : «وسوف تسألون» ..

وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل . وأنا إليه أميل .

«واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟» ..

والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول. فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا فى هذه الصورة الفريدة .. صورة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل الرسل قبله عن هذه القضية: «أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟» وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول . وهى صورة طريفة حقا . وهو أسلوب موح شديد التأثير فى القلوب .

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرسل قبله . وهناك أبعاد الموت والحياة وهى أكبر من أبعاد الزمان والمكان .. ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة . حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد . وهى كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة ؛ ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين . وهذه هى ظلال التعبير القرآنى اللطيف العجيب ..

على أنه بالقياس إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإخوانه من الرسل مع ربهم لا يبقى شىء بعيد وآخر قريب . فهناك دائما تلك اللحظة اللدنية التى تزال فيها الحواجز وترتفع فيها السدود، وتتجلى الحقيقة الكلية عارية من كل ستار . حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هذا الوجود . تتجلى وحدة متصلة ، وقد سقط عنها حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الشكل والصورة . وهنا يسأل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجاب ، بلا حاجز ولا حجاب. كما وقع فى ليلة الإسراء والمعراج .

وإنه ليحسن في مثل هذه المواطن ألا نعتد كثيرا بالمألوف في حياتنا. فهذا المألوف ليس هو القانون الكلي. ونحن لا ندرك من هذا الوجود إلا بعض ظواهره وبعض آثاره، حين نهتدي إلى طرف من قانونه. وهناك حجب من تكويننا ذاته ومن حواسنا وما ترتبه علينا من مألوفات. فأما اللحظة التي تتجرد فيها النفس من هذه العوائق والحجب فيكون لقاء الحقيقة المجردة للإنسان بالحقيقة المجردة لأي شيء آخر أمرا أيسر من لمس الأجسام للأجسام!

***

وفي سياق تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره؛ واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا. تجيء حلقة من قصة موسى — عليه السلام — مع فرعون وملئه، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»! وتباهيه بماله من ملك ومن سلطان، وتساؤله في فخر وخيلاء: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟».. وانتفاخه على موسى — عبد الله ورسوله — وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي: «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟».. واقتراحه الذي يشبه ما يقترحون: «فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين»...

وكأنما هي نسخة تكرر، أو أسطوانة تعاد!

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة؛ على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى — عليه السلام — وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء.

ثم كيف كانت العاقبة بعد ما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ: «فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين»..

وهاهم أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون!

ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق. كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في استقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض؛ وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون!

***

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إنى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » . .

هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، فى إشارة مقتضبة تمهيداً لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة فى هذا الموضع — وهى تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركى العرب وقيمهم — ويلخص حقيقة رسالة موسى : « فقال : إنى رسول رب العالمين » .. وهى ذات الحقيقة التى جاء بها كل رسول : أنه « رسول » وأن الذى أرسله هو « رب العالمين » .

ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التى عرضها موسى ، وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها : « إذا هم منها يضحكون » . . شأن الجهال المتعالين !

يلى ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة فى سور أخرى :

« وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا: ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . .

وهكذا لم تكن الآيات التى ظهرت على يدى موسى — عليه السلام — مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلباً لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى !

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم : « ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » . . فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له : « ياأيها الساحر » ويقولون كذلك : « ادع لنا ربك بما عهد عندك » وهو يقول لهم : إنه رسول « رب العالمين » لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم : « إننا لمهتدون » :

« فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . .

ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلا إلى قلوبها المخدوعة . وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة

بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق:

«ونادى فرعون في قومه : قال : ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ » .

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير ، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه . فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما — ومصر لا تساوي هباءة فيه — فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد!

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد !

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب !

« أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟ » .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة ومال مشهود . أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين . شعب إسرائيل . أما قوله : « ولا يكاد يبين » فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان . وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » . . وحلت عقدة لسانه فعلا ، وعاد يبين .

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لابد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته ، خيرا من موسى — عليه السلام — ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم !

« فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ؟ » . .

هكذا . من ذلك العرض التافه الرخيص ! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم ! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك ، إذ كانت هذه عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان ؟

« أو جاء معه الملائكة مقترنين » . . .

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول !

« فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ؛ ويلقون فى روعهم مايشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين !

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة فى مهب الريح . ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول :

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ؛ وعلم الله أن القوم لا يؤمنون ؛ وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى فى خيلاء،وعشت عن الآيات البينات والنور ؛ فحقت كلمة الله وتحقق النذير :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » ..

يتحدث الله سبحانه عن نفسه فى مقام الانتقام والتدمير ؛ إظهارا لغضبه وجبروته فى هذا المقام . فيقول : « فلما آسفونا » . . أى أغضبونا أشد الغضب .. « انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .. يعنى فرعون وملأه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفا يتبعه كل خلف ظالم ؛ «ومثلا للآخرين » الذين يجيئون بعدهم ، ويعرفون قصتهم، فيعتبرون .

***

وهكذا تلتقى هذه الحلقة من قصة موسى ــ عليه السلام ــ بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب فى مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين معه ؛ وتحذر المشركين المعترضين ، وتنذرهم مصيرا كمصير الأولين ..

وتلتقى الحقيقة فى عرض القصة ، بالتناسق بين الحلقة المعروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها فى هذه الحال القائمة . وتصبح القصة بهذا أداة للتربية فى المنهج الإلهى الحكيم .

***

ثم ينتقل السياق من هذه الحلقة فى قصة موسى ، إلى حلقة من قصة عيسى ، بمناسبة جدل القوم حول عبادتهم للملائكة وعبادة بعض أهل الكتاب للمسيح .. وذلك فى الدرس الأخير .

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا : أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ، هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

« وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ؟ * ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ .

« يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا : يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ : إِنَّـكُمْ مَاكِثُونَ .

« لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَىٰ ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَـكْتُبُونَ .

« قُلْ : إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ، وَهُوَ الْحَـكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . فَأَنَّىٰ يُؤْفَـكُونَ ؟ * وَقِيلِهِ : يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ، وَقُلْ : سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . .

فى هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة الملائكة ؛ ويحكى حادثا من حوادث الجدل الذى كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولـكن مراء ومحالا !

فلما قيل لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التى جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله فى النار . . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم ــ وقد عبده المنحرفون من قومه ــ أهو فى النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء . ثم قالوا . إذا كان أهل الـكتاب

يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلا يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعا بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض مشهدا مطولا من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين .

وينفي أساطيرهم عن الملائكة ، وينزه الله ـ سبحانه ـ عما يصفون ، ويعرفه لعباده ببعض صفاته ؛ وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون .

ويختم السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصفح عنهم والإعراض ويدعهم ليعلموا ما سيعلمون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين .

***

«ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون. وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟ ماضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ، هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

« ولما جاء عيسى بالبينات قال :قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال : جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني مع الوليد ابن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر ابن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض له النضر ابن الحارث ، فكلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أفحمه . ثم تلا عليه وعليهم « إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » . . الآيات . . ثم قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل عبد الله ابن الزبعرى التميمي حتى جلس . فقال الوليد ابن المغيرة له : والله ماقام النضر ابن الحارث لابن عبد المطلب وماقعد ! وقد زعم محمد أنا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

فقال عبد الله ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته . سلوا محمدا أكل مايعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ،واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم .فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده. فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله عزوجل: « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ..أى عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون» .. أى يصدون عن أمرك بذلك ...

وذكر صاحب الكشاف فى تفسيره :لما قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على قريش : « إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم » امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا . فقال عبد الله ابن الزبعرى : يامحمد . أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : « هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم » فقال : خصمتك ورب الكعبة ! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبى ، وتثنى عليه خيرا وعلى أمه؟ وقدعلمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ! ففرحوا وضحكوا. وسكت النبى — صلى الله عليه وسلم — فأنزل الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى » ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد الله ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا ، وجادل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعبادة النصارى إياه « إذا قومك » — قريش — من هذا المثل « يصدون» ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحا وجذلا وضحكا بما سمعوا من إسكات رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بجدله ، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ « يصدون » بالضم فمن الصدود . أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل : من الصديد وهو الجبة . وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما . « وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ » يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا !»

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه . وهى تتفق فى عمومها مع رواية ابن إسحاق .

ومن كليهما يتضح الالتواء فى الجدل ، والمراء فى المناقشة . ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول : « بل هم قوم خصمون » . . ذوو لدد فى الخصومة ومهارة . فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فيلوونه عن استقامته ، ويتلمسون شبهة فى عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية ، التى يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص ، وفقد الاستقامة ؛ يكابر فى الحق ، ويعمد إلى شبهة فى لفظ أو عبارة أو منفذ خلفى للحقيقة ! ومن ثم كان نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتشديده عن المراء ، الذى لا يقصد به وجه الحق ، إنما يراد به الغلبة من أى طريق .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد ابن عبد الرحمان ، عن عبادة ابن عبادة ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبى أمامة — رضى الله عنه — قال : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن . فغضب غضبا شديدا ، حتى كأنما صب على وجهه الخل . ثم قال — صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض . فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » . ثم تلا — صلى الله عليه وسلم — « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » . .

وهناك احتمال فى تفسير قوله تعالى : « وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ » يرشح له سياق الآيات فى صدد أسطورتهم عن الملائكة . وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم . بما أن الملائكة أقرب فى طبيعتهم وأقرب نسبا — حسب أسطورتهم — من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . ويكون التعقيب بقوله تعالى : « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » .. يعنى الرد على ابن الزبعرى كما سبق . كما يعنى أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل . فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد . كانحرافهم هم . فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف . فكله ضلال . وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضا . وهو قريب .

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا :

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » ..

فليس إلها يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا جريرة له فى عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلا لبنى إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به . فنسوا المثل ، وضلوا السبيل !

واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة ، يبين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم . ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم فى هذه الأرض ، أو لحول بعض الناس إلى ملائكة يخلفونهم فى الأرض :

« ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » . .

فمرد الأمر إلى مشيئة الله فى الخلق . وما يشاؤه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ، ولا يتصل به ــ سبحانه ــ إلا صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ، والعابد بالمعبود .

ثم يعود إلى تقرير شىء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها :

« وإنه لعلم للساعة . فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى ــ عليه السلام ــ إلى الأرض قبيل الساعة وهو ماتشير إليه الآية : « وإنه لعلم للساعة » بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها »(١)

وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال : صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة »(٢) .

---

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود (٢) أخرجه مسلم .

وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ماجاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين .

« فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم » . .

وكانوا يشكون فى الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشردون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه .

ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه :

« ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين » . .

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدوا يقف له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ؛ ثم لايأخذ حذره ؛ ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدوالصريح!

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر مالا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر مالا يخطر كذلك على قلب بشر . وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ؛ التى تجعل من الإنسان إنسانا ، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع ! والتى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس ؛ ويثبت فى الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى — عليه السلام — وحقيقة ماجاء به ؛ وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده :

« ولما جاء عيسى بالبينات قال :قد جئتكم بالحكمة، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التى أجراها الله على يديه ، أومن الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه : « قد جئتكم بالحكمة » . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛ واطمأن إلى

خطواته فى الطريق على اتزان وعلى نور. وجاء ليبين لهم بعض الذى يختلفون فيه. وقد اختلفوا فى كثير من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ وانقسموا فرقا وشيعا . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لامواربة فيها ولالبس ولاغموض : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه » .. ولم يقل : إنه إله ، ولم يقل : إنه ابن الله . ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع . وقال لهم : إن هذا صراط مستقيم لاالتواء فيه ولااعوجاج ، ولا زلل فيه ولا ضلال . ولـكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزابا كما كان الذين من قبله مختلفين أحزابا . اختلفوا ظالمين لاحجة لهم ولاشبهة : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل ؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ؛ وقد طال انتظارهم له ،فلما جاءهم نكروه وشاقوه وهموا أن يصلبوه !

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعا ونحلا كثيرة ، أهمها أربع فرق أوطوائف .

طائفة الصدوقيين نسبة إلى « صدوق » وإليه وإلى أسرته ولاية الـكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لابد أن يرجع نسبه إلى هارون أخى موسى . فقد كانت ذريته هى القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين فى شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون « البدع » فى الوقت الذى يترخصون فى حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة ؛ ولايعترفون بأن هناك قيامة !

وطائفة الفريسيين ، وكانو على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشددهم فى الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبةعلى الفريسيين هى الزهد والتصوف وإن كان فى بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطا من اليهود والأشوريين ، وتدين بالـكتب الخمسة فى العهد القديم المعروفة بالـكتب الموسوية ، وتنفى ماعداها مما أضيف إلى هذه الـكتب فى العهود المتأخرة ، مما يعتقد غيرهم بقداسته .

وطائفة الآسين أو الأسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون فى

عزلة عن بقية طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف ، كما يأخذون جماعتهم بالشدة فى التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلة فى الاعتقاد والتقاليد بين بنى إسرائيل ، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح — عليه السلام — بالتوحيد الذى أعلنه : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه » . وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحى والعناية بالقلب البشرى قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه — عليه السلام — فى هذا قوله عن هؤلاء : « إنهم يحزمون الأوقار ، ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ، ولا يمدون إليها إصبعا يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ! يعرضون عصائبهم ، ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق ، وأن يقال لهم : سيدى . سيدى . حيث يذهبون ! » ..

أو يخاطب هؤلاء فيقول : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . إنكم تتقون ظاهر الكأس والصحفة ، وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالقبور المبيضة . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » [1] . .

وإن الإنسان — وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح — عليه السلام — وغيرها فى بابها — ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين فى زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر . لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين ، الذين يراهم الناس فى كل حين !

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه ، فاختلف أتباعه من بعده . اختلفوا شيعا وأحزابا . بعضها يؤلهه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح

(١) النصوص منقولة عن كتاب : عبقرية المسيح للأستاذ العقاد . والكلام عن طوائف اليهود مستعان به فيه .

ابن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التى جاء بها عيسى عليه السلام. وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين [1] .

« فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ..

ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى عيسى ــ عليه السلام ــ بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وماأحدثته حوله من أساطير !

***

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى ــ عليه السلام ــ مع المحاجين لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بفعل هذه الأحزاب ؟ ويصور حالهم يوم القيامة فى مشهد رائع طويل ، يحتوى كذلك صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم:

« هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون ؟ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين .

« ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون .

« إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا : يامالك ليقض علينا ربك . قال : إنكم ماكثون » ..

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لايشعرون بمقدمها :

« هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون » !

هذه المفاجأة تحدث حدثا غريبا ، يقلب كل ما كانوا يألفونه فى الحياة الدنيا :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ..

وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم .. لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال . فاليوم يتلاومون . واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! « إلا

(١) يراجع هذا الخلاف بشىء من التفصيل فى ص ٢٢ من الجزء العشرين من هذه الظلال فى تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » ..

المتقين » .. فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى ، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة ..

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوى الكريم للمتقين:

« ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون.الذين آمنوا بآياتنا وكانوامسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » ..

أى تسرون سرورا يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدوعليكم الحبور .

ثم نشهد — بعين الخيال —فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم.وإذا لهم فى الجنة ماتشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالا وجمالا فى التكريم :

« يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ماتشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين » . .

ومع هذا النعيم . ماهو أكبر منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلى الكريم :

« وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون .لكم فيها فاكهة كثيرة ومنها تأكلون » ..

فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟

« إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون » . .

وهو عذاب دائم ، وفى درجة شديدة عصيبة . لايفتر لحظة ، ولايبرد هنيهة . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل فى الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يائسون قانطون :

« لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون » ..

كذلك فعلوا بأنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين :

« وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » . .

ثم تتناوح فى الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق :

« ونادوا : يامالك . ليقض علينا ربك » . .

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة فى الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصيحون فى طلب النجاة ولا فى طلب الغوث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون فى طلب الهلاك . الهلاك السريع الذى يريح . . وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا ! . . وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق . وإننا لنكاد

ترى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة : « يامالك . ليقض علينا ربك » !

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام :

« قال : إنكم ماكثون » !

فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . إنكم ماكثون !

* * *

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى ، الصائرين إلى هذا المصير ؛ ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد ، في أنسب جو للتحذير والتعجيب .

« لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . أم أبرموا أمرا ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون » . .

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ؛ فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه ؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنهم يصادم أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة !

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمكرون :

« أم أبرموا أمرا ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون » . .

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم .

* * *

ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب ، ويوجه رسوله الكريم ، إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذى شهدوا صورته منذ قليل :

« قل : إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . .

لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته، وبمعرفة ذلك ، نبى الله ورسوله ، فهو منه قريب ، وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته ، وتوقير ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لايعبد إلا الله . فهذا فى ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له ، ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب !

« سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون » . .

وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ، ونظامها ، وتناسقها ، ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستعلاء . يشير إلى هذا كله قوله : « رب العرش » . . يصغر فى نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم فى الفطرة أن يكون له شبه — أى شبه — بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهوا ولعبا ؛ وخوضا وتقحما ، لا يستحق شىء منه المناقشة والجدل ؛ إنما يستحق الإهمال أو التحذير :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .

والذى شهدوا صورة منه يوم يكون !

* * *

ثم يمضى — بعد الإعراض عنهم وإهمالهم — فى تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم :

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة ، وإليه ترجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » . .

وهو تقرير للألوهية الواحدة فى السماء وفى الأرض ، والتفرد بهذه الصفة لايشاركه فيها مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العريض .

ثم تمجيد لله وتعظيم فى لفظ « تبارك » أى تعاظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون . وهو « رب السماوات والأرض ومابينهما » . وهو الذى يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب .

ويومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولادا أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم — كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله . فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن به . ومن يشهد بالحق لا يشفع فى من جحده وعاداه !

***

ثم يواجههم بمنطق فطرتهم ، وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون ، وهو أن الله خالقهم . فكيف حينئذ يشركون معه أحدا فى عبادته ، أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به :

« ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون » ؟

وكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطق المحتوم ؟

***

وفى ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول — صلى الله عليه وسلم — لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم . فيبرزه ويقسم به :

« وقيله . يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون » ..

وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له ، والعناية به ، والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .

ويجيب عليه — فى رعاية — بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى الصفح والإعراض ، وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام فى القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف المستور :

« فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون » ..

سورة الدخان مكية
وآياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ، إِنَّا مُنتَقِمُونَ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا

فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ .

« إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

« إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ » . .

. . .

يشبه إيقاع هذه السورة المكية ، بفواصلها القصيرة ،وقافيتها المتقاربة ، وصورها العنيفة ، وظلالها الموحية .. يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشرى المشدودة .

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعا . سواء فى ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكونى ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن فى القلوب .

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وإنذارا لهم وتحذيرا . ثم تعريف للناس بربهم : رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحدانيته وهو المحيي المميت رب الأولين والآخرين .

ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : « بل هم فى شك يلعبون » ! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » .. ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتى لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » ..

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ؛ ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم ، وناداهم : « أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله » .. فأبوا أن يسمعوا حتى يئس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم فى هوان بعد الاستعلاء والاستكبار : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » ..

وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، وقولهم : « إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ليذكرهم بمصرع قوم تبع ، وماهم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم .

ويربط بين البعث ، وحكمة الله فى خلق السماوات والأرض ، « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

ثم يحدثهم عن يوم الفصل : « ميقاتهم أجمعين » . وهنا يعرض مشهدا عنيفا للعذاب بشجرة الزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخذه إلى سواء الجحيم ، يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

وإلى جواره مشهد النعيم عميقا فى المتعة عمق مشهد العذاب فى الشدة . تمشيا مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد .

وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » .. وبالتهديد الملفوف العنيف : « فارتقب إنهم مرتقبون » .

* * *

إنها سورة تهجم على القلب البشرى من مطلعها إلى ختامها ، فى إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة فى سمة العنف والتتابع . وتطوف به فى عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضى والحاضر ، والغيب والشهادة ، والموت والحياة ، وسنن الخلق ونواميس الوجود ... فهى — على قصرها نسبيا — رحلة ضخمة فى عالم الغيب وعالم الشهود ..

* * *

« حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم. رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسها. وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله فى تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق، وترتيب مخارج حروفه، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه .. وكلها حقائق عظيمة تكبر فى القلب كلما تدبرها مجردا من وقع الألفة والعادة الذى يذهب بكل جديد !

فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب فى ليلة مباركة :

« إنا أنزلناه فى ليلة مباركة . إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم .. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..

والليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن هى — والله أعلم — الليلة التى بدأ فيها نزوله؛ وهى إحدى ليالى رمضان ، الذى قيل فيه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .. والقرآن لم ينزل كله

فى تلك الليلة ؛ كما أنه لم ينزل كله فى رمضان ؛ ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفى فى تفسير إنزاله فى الليلة المباركة .

وإنها لمباركة حقا تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتى يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهى فى حياة البشر ؛ والتى يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة فى هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبيها فى هوادة ؛ وتقيم على أساسها عالما إنسانيا مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متناسقا مع الكون الذى يعيش فيه ، طاهرا نظيفا كريما بلا تعمل ولا تكلف ؛ يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء فى كل حين.

ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة فى كنف السماء ، موصولين مباشرة بالله ؛ يطلعهم أولا بأول على ما فى نفوسهم ؛ ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم ، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، فى كل حركة وكل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ؛ ويلجأون إليه أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .

ومضى ذلك الجيل وبقى بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشرى ، يصنع به حين يتفتح له ما لا يصنعه السحر ؛ ويحول مشاعره بصورة تحسب أحيانا فى الأساطير !

وبقى هذا القرآن منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان . حياة إنسانية تعيش فى بيئتها وزمانها فى نطاق ذلك المنهج الإلهى المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف . وهذه سمة المنهج الإلهى وحده . وهى سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

إن البشر يصنعون ما يغنى مثلهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولظرف خاص من الحياة . فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات فى كل ظرف وفى كل حين ؛ جامعة بين ثبات الحقيقة وتشكل الصورة فى اتساق عجيب .

أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة . . أولا للإنذار والتحذير : « إنا كنا منذرين » . فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه .

وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلا وفارقا بهذا التنزيل :

« فيها يفرق كل أمر حكيم » . .

وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل

الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ؛ فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولامرسوم فى دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم فى الناموس الكلى القديم .

وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين :

« أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين » ..

وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين :

« رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..

وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى فى تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر ، الذى يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم فى العروق . وتحول الكائن البشرى إلى إنسان كريم ؛ والمجتمع البشرى إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون !

إن هذه العقيدة — التى جاء بها القرآن — فى تكاملها وتناسقها — جميلة فى ذاتها جمالا يحب ويعشق ؛ وتتعلق به القلوب ! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح . فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق . الجمال الذى يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها ، ثم يجمعها ، وينسقها ، ويربطها كلها بالأصل الكبير .

« رحمة من ربك » نزل بها هذا القرآن فى الليلة المباركة . . « إنه هو السميع العليم » . يسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون ، وما يصلح لهم ، ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

وهو المشرف على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه :

« رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين » . .

فما ينزله للناس يربيهم به ، هو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميسه التى تصرف الكون .. والتلويح لهم باليقين فى هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة ، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، ثم يتخذون من دونه أربابا ، مما يشى بغموض هذه الحقيقة فى نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين .

وهو الإله الواحد الذى يملك الموت والحياة ؛ وهو رب الأولين والآخرين :

« لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين » . .

والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . ومشهد الموت كمشهد الحياة فى كل صورة وفى كل شكل يلمس القلب البشرى ويهزه ؛ ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره فى القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين .

* * *

وعند مايبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ؛ وهو حال مناقض لما ينبغى أن يكونوا عليه تجاه حقيقة الموقف الجاد الذى لا مجال للعب فيه :

« بل هم فى شك يلعبون . فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس ، هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . .

يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكون فى تلك الآيات الثابتة . فدعهم إلى يوم هائل عصيب :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس . هذا عذاب أليم » . .

وقد اختلف السلف فى تفسير آية الدخان . فقال بعضهم : إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكرر فى القرآن . وإنه آت يترقبونه ويترقبه رسول الله — صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل هو قد وقع فعلا ، كما توعدهم به . ثم كشف عن المشركين بدعاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدهما . ثم نعقب بما فتح الله به ، ونحسبه صوابا إن شاء الله .

قال سليمان ابن مهران الأعمش ، عن أبى الضحى مسلم ابن صبيح ، عن مسروق . قال : دخلنا المسجد — يعنى مسجد الكوفة — عند أبواب كندة . فإذا رجل يقص على أصحابه : «يوم تأتى السماء بدخان مبين » . . تدرون ماذا الدخان ؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود — رضى الله عنه — فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعا ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم — صلى الله عليه

وسلم : « قل : ماأسألكم عليه من أجر وماأنامن المتكلفين » . إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . أحدثكم عن ذلك. إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ؛ وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان — وفى رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد — قال الله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » . . فأتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقيل له : يارسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت. فاستسقى — صلى الله عليه وسلم — لهم فسقوا . فنزلت . « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . قال ابن مسعود رضى الله عنه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ . . فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . قال : يعنى يوم بدر . قال ابن مسعود — رضى الله عنه — فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام » . . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين . ورواه الإمام أحمد فى مسنده . وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما. وعند ابن جرير ،وابن أبى حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . وقد وافق ابن مسعود — رضى الله عنه — على تفسير الآية بهذا،وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى . وهو اختيار ابن جرير .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد فى حديث أبى سريحة حذيفة ابن أسيد الغفارى — رضى الله عنه — قال : أشرف علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من عرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال — صلى الله عليه وسلم — : « لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها،والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق،وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب،ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس — أوتحشر الناس — تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » . . تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد ابن عوف، حدثنا محمد ابن اسماعيل ابن عياش حدثنى أبى، حدثنى ضمضم ابن زرعة ، عن شريح ابن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى — رضى الله عنه —

قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال . ورواه الطبرانى عن هاشم ابن يزيد ، عن محمد ابن إسماعيل ابن عياش بهذا النص (وقال ابن كثير فى التفسير : وهذا إسناد جيد) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن ابن جريج ، عن عبد الله ابن أبى ملكية . قال : غدوت على ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت . . وهكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن سفيان ، عن عبد الله ابن أبى يزيد ، عن عبد الله ابن أبى مليكة ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما فذكره .

قال ابن كثير فى التفسير : (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التى أوردوها، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » . . أى بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى : « يغشى الناس » . . أى يتغشاهم ويعمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : « يغشى الناس » . . وقوله تعالى : « هذا عذاب أليم » . . أى يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا . كقوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون » . أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . . وكذا قوله جل وعلا : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ » . . وهكذا قال جل وعلا هاهنا : « أنى

لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون » . . يقول : كيف لهم التذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه ، وما وافقوه بل كذبوه ، وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » . . . الآية . وقوله عز وجل : « ولو ترى إذ فزعوا ، فلافوت، وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ » إلى آخر السورة . . وقوله تعالى : « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . يحتمل معنيين : أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون » .. وكقوله جلت عظمته : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .. والثانى : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » . . ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم . . . وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله . . وقوله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . فسر ذلك ابن مسعود — رضى الله عنه — يوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود . رضى الله عنه ، وجماعة عنه على تفسير الدخان بما تقدم وروى أيضا عن ابن عباس — رضى الله عنهما — من رواية العوفى عنه وأبى ابن كعب — رضى الله عنه — وهو محتمل : والظاهر أن ذلك يوم القيامة . وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير : حدثنى يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء . عن عكرمة قال: قال ابن عباس — رضى الله عنها — قال ابن مسعود — رضى الله عنه — البطشة الكبرى يوم بدر. وأنا أقول : هى يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة فى أصح الروايتين عنه ، والله أعلم) .. انتهى كلام ابن كثير ..

ونحن نختار قول ابن عباس — رضى الله عنها — فى تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة ، وقول ابن كثير فى تفسيره . فهو تهديد له نظائره الكثيرة فى القرآن الكريم ، فى مثل هذه المناسبة . ومعناه : إنهم يشكون ويلعبون . فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب . يوم تأتى السماء

بدخان مبين يغشى الناس . ووصف هذا بأنه عذاب أليم . وصور استغاثتهم : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . ورده عليهم باستحالة الاستجابة ، فقد مضى وقتها : « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . . يعلمه ذلك الغلام الأعجمى ! وهو — كما زعموا — مجنون . .

وفى ظل هذا المشهد الذى يرجون فيه كشف العذاب فلا يجابون يقول لهم : إن أمامكم فرصة بعد لم تضع ، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلا وأنتم الآن فى الدنيا . وهو مكشوف عنكم الآن فآمنوا كما تعدون أن تؤمنوا فى الآخرة فلا تجابون . وأنتم الآن فى عافية لن تدوم. فإنكم عائدون إلينا « يوم نبطش البطشة الكبرى » . . يوم يكون ذلك الدخان الذى شهدتم مشهده فى تصوير القرآن له . « إنا منتقمون » من هذا اللعب الذى تلعبون ، وذلك البهت الذى تبهتون به الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذ تقولون عنه : « معلم مجنون » . . وهو الصادق الأمين . .

بهذا يستقيم تفسير هذه الآيات ، كما يبدو لنا ، والله أعلم بما يريد .

* * *

بعد ذلك يأخذ بهم فى جولة أخرى مع قصة موسى عليه السلام . فيعرضها فى اختصار ينتهى ببطشة كبرى فى هذه الأرض . بعد إذ أراهم بطشته الكبرى يوم تأتى السماء بدخان مبين :

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم : أن أدوا إلى عباد الله ، إنى لكم رسول أمين. وألا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين. وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون .

« فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . . . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهوا ، إنهم جند مغرقون .

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » . .

هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء . والإملاء للمكذبين فترة من الزمان ، وهم يستكبرون على الله ، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء . وأن إغضاب الرسول واستنفاد حلمه على أذاهم ورجائه فى هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد :

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون » ..

وابتليناهم بالنعمة والسلطان ، والتمكين فى الأرض ، والإملاء فى الرخاء ، وأسباب الثراء والاستعلاء .

« وجاءهم رسول كريم »

وكان هذا طرفا من الابتلاء ، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم ،الذى لايطلب منهم شيئا لنفسه ؛ إنما يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله، وألا يستبقوا شيئا لايؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله :

« أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين. وألا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون » ..

إنها كلمات قصيرة تلك التى جاءهم بها رسولهم الكريم — موسى عليه السلام :

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية .والأداء الكامل . والاستسلام المطلق (١) . الاستسلام المطلق لله.الذى هم عباده. وماينبغى للعباد أن يعلوا على الله . فهى دعوة الله يحملها إليهم الرسول، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم. البرهان القوى والسلطان المبين، الذى تذعن له القلوب . وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه. فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه . وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة .

ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل طليقا ، يحاول أن يصل إلى الناس فى سلام وهدوء.ومن ثم يحارب الحق بالبطش . ولايسالمه أبدا . فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولى فى كل يوم على النفوس والقلوب..ومن ثم يبطش الباطل ويرجم ولا يعتزل الحق. ولايدعه يسلم أو يستريح !

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة ، ليصل إلى قرب النهاية .حين وصلت التجربة

---

(١) هنالك تفسير آخر لقوله تعالى: « أن أدوا إلى عباد الله » . أى أعطونى بنى إسرائيل عباد الله . وأدوهم إلى ولاتعجزوهم للسخرة والعذاب . وذلك كقوله : « أن أرسل معنا بنى إسرائيل ولاتعذبهم » .

إلى نهايتها؛ وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته؛ ولن يسالموه أو يعتزلوه. وبدا له إجرامهم أصيلا عميقا لا أمل فى تخلصهم عنه. عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير :

« فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » . .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه ؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه ، ويدع له التصرف بما يريد ؟

وتلقى موسى الإجابة إقرارا من ربه لما دمغ به القوم . . حقا إنهم مجرمون . .

« فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون » . .

والسرى لا يكون إلا ليلا ، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد ، مشهد السرى بعباد الله — وهم بنو إسرائيل . ثم للإيحاء بجو الخفية ، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون ومن وراء علمه . والرهو : الساكن . وقد أمر الله موسى — عليه السلام — أن يمر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكنا على هيئته التى مر هو وقومه فيها ، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم ، ليتم قدر الله بهم كما أراده : « إنهم جند مغرقون » . . فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة . والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم .

ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التى لابد أن تكون : « إنهم جند مغرقون » . . ويمضى من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه ؛ تعقيبا يشى بهوان فرعون الطاغية المتعالى وملئه المالىء له على الظلم والطغيان . هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطىء له الملأ المفتونون به ؛ وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثى له أحد على سوء المآل :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . .

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين .

ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه . ويرثه قوم آخرون — وفى موضع آخر قال :

« كذلك وأورثناها بنى إسرائيل » — وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات . ولكنهم ورثوا ملكا مثله فى الأرض الأخرى . فالمقصود إذن هو نوع الملك والنعمة . الذى زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل !

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ؛ ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ماحل الميعاد :

« فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » ..

وهو تعبير يلقى ظلال الهوان ، كما يلقى ظلال الجفاء .. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد فى أرض ولاسماء . ولم يأسف عليهم أحد فى أرض ولاسماء . وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين فى الأرض يطأون الناس بالنعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهى تعيش فيه !

ولو أحس الجبارون فى الأرض مافى هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله . ولأدركوا أنهم يعيشون فى الكون منبوذين منه ،مقطوعين عنه ، لاتربطهم به آصرة ، وقد قطعت آصرة الإيمان .

وفى الصفحة المقابلة مشهد النجاة والتكريم والاختيار :

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » ..

ويذكرهنا نجاة بنى إسرائيل من العذاب «المهين» فى مقابل الهوان الذى انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون فى التجبر والتعالى : « من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين » ..

ثم يذكر اختيار الله لبنى إسرائيل — على علم — بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها . اختيارهم على العالمين فى زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ؛ على كل ماقصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ؛ إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة .

« وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » ..

فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات، التى آتاهم الله إياها للابتلاء .حتى إذا تم امتحانهم، وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم ، فضربهم بمن يشردهم فى الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا فى الأرض إلى يوم الدين ..

* * *

وبعد هذه الجولة فى مصرع فرعون وملئه ، ونجاة موسى وقومه ، وابتلائهم بالآيات بعد فتنة فرعون وأخذه . . بعد هذه الجولة يعود إلى موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وشكهم فيها ، وإنكارهم لها . يعود ليربط بين قضية البعث وتصميم الوجود كله وبنائه على الحق والجد ، الذى يقتضى هذا البعث والنشور :

« إن هؤلاء ليقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين . وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون . إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » . .

إن هؤلاء المشركين من العرب ليقولون : ماهى إلا الموتة التى نموتها ، ثم لا حياة بعدها ولا نشور . ويسمونها « الأولى » بمعنى السابقة المتقدمة على الموعد الذى يوعدونه للبعث والنشور . ويستدلون على أنه ليس هناك إلا هذه الموتة وينتهى الأمر . يستدلون بأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد منهم أحد ، ولم ينشر منهم أحد ؛ ويطلبون الإتيان بهم إن كان النشور حقا وصدقا .

وهم فى هذا الطلب يغفلون عن حكمة البعث والنشور ؛ ولايدركون أنها حلقة من حلقات النشأة البشرية ، ذات حكمة خاصة وهدف معين ، للجزاء على ما كان فى الحلقة الأولى ، والوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التى تؤهلهم لها خطواتهم المستقيمة فى رحلة الحياة الدنيا ؛ والوصول بالعصاة إلى النهاية الحقيرة التى تؤهلهم لها خطواتهم المتنكسة المرتكسة فى الحمأة المستقذرة . . وتلك الحكمة تقتضى مجىء البعث والنشور بعد انقضاء مرحلة الأرض

كلها ؛ وتمنع أن يكون البعث لعبة تتم حسب رغبة أو نزوة بشرية لفرد أو لجماعة محدودة من البشر كي يصدقوا بالبعث والنشور ! وهم لا يكمل إيمانهم إلا أن يشهدوا بالغيب على هذه القضية ، التي يخبرهم بها الرسل ؛ ويقتضيها التدبر في طبيعة هذه الحياة ، وفي حكمة الله في خلقها على هذا الأساس . وهذا التدبر وحده يكفي للإيمان بالآخرة ، والتصديق بالنشور .

وقبل أن يوجههم هنا إلى هذا التدبر في تصميم الكون ذاته ، يلمس قلوبهم لمسة عنيفة بمصرع قوم تبع . والتابعة من ملوك حمير في الجزيرة العربية . ولابد أن القصة التي يشير إليها كانت معروفة للسامعين ، ومن ثم يشير إليها إشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ، وتحذيرها مصيرا كهذا المصير :

« أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » . .

وفي ظل هذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من تصورها ، يقودهم إلى النظر في تصميم السماوات والأرض،وتنسيق هذا الكون؛ومايبدو وراء هذا التنسيق من قصدوصدقوتدبير:

« وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغني مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم » .

واللفتة لطيفة ، والمناسبة بين خلق السماوات والأرض ومابينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة . ولكن الفطرة البشرية تدركها في يسر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه .

والواقع أن تدبر مافي خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لايزيد ولاينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله ، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به ، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه ؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه . وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولاتجيء بالموت ، بعدهذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب . وأن أمر الآخرة ، وأمر الجزاء فيها حتم لابد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود في بناء هذه الحياة وهذا الوجود . حتم تتحقق به النهاية الطبيعية للصلاح

والفساد فى هذه الحياة الدنيا. هذا الصلاح وهذا الفساد اللذان ركب الإنسان على أساس الاستعداد لهما ؛ وظهور جهده هو وإرادته فى اختيار أحدهما، وتلقى جزاء هذا الاختيار فى نهاية المطاف .

وإن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفى العبث عن فعل الله سبحانه ، ليقتضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ، ينتهى إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية. وهذا هو صميم قضية الآخرة . ومن ثم يجىء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد فى خلق السماوات والأرض . يجىء قوله تعالى :

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » ..

يجىء هذا القول طبيعيا ومرتبطا بما قبله كل الارتباط . فالحكمة تقتضى أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم فى الأرض، ومن كل قربى وآصرة، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ماعملت أيديهم ،لاينصرهم أحد ،ولايرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف . الذى خرجوا من يده ــ سبحانه ــ ليعملوا ؛ وعادوا إلى يده ــ سبحانه ــ ليتسلموا منه الجزاء . ومابين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء .

هكذا تقتضى الحكمة الظاهرة فى تصميم هذا الكون، وفى خلق السماوات والأرض ومابينهما بالحق ، وفى التقدير الواضح والقصد الناطق فى كل شىء فى هذا الوجود ..

* * *

وبعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهدا من مشاهد يوم الفصل ؛ وماينتهى إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم . مشهدا عنيفا يتناسق مع ظلال السورة وجوها العنيف :

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون .

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك. ذلك هو الفوز العظيم » . .

ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم، بعد تقرير أنها طعام الأثيم. عرض مفزع مرعب مخيف.. إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى — وهو المهل — يغلى فى البطون كغلى الحميم. وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالى على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه « الـكريم ! » :

« خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » ..

خذوه أخذا واعتلوه عتلا ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولاهوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلى الذى يشوى ويكوى. ومع الشد والجذب والدفع والعتل والـكى والشى .. التأنيب والترذيل :

« ذق . إنك أنت العزيز الـكريم » .

وهذا جزاء العزيز الـكريم فى غير ما عزة ولا كرامة، فقدكان ذلك على الله وعلى المرسلين!

« إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

فقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون !

وبينما الأخذ والعتل ،والصب والـكى،والتأنيب والخزى .. فى جانب من جوانب الساحة .. يمتد البصر — بعين الخيال — إلى الجانب الآخر .فإذا « المتقون »الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم : « فى مقام أمين » .. لاخوف فيه ولافزع ، ولاشد فيه ولاجذب، ولاعتل فيه ولاصب! بل هم منعمون رافلون « فى جنات وعيون » .. يلبسون من سندس — وهو الحرير الرقيق — ومن إستبرق — وهو الحرير السميك — ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسمرون . كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين ،يتم بهن النعيم. وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون و « يدعون فيها بـكل فاكهة آمنين » .. لايتوقعون نهاية لهذا النعيم ،فلاموت هنالك وقد ذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لايذوقون .. (وذلك فى مقابل ما كان المشركون يقولون : « إن هى إلا موتتنا الأولى ومانحن بمنشرين » .. فنعم إنها الموتة الأولى ولـكن وراءها الجحيم والنعيم) .

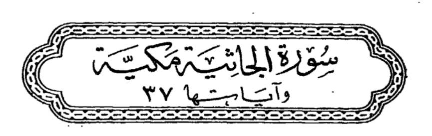
« ووقاهم عذاب الجحيم » . . تفضلا منه سبحانه . فالنجاة من العذاب لاتـكون إلا بفضله ورحمته : « فضلا من ربك . ذلك هو الفوز العظيم » .. وأى فوز عظيم ؟ !

***

وفى ظل هذا المشهد العنيف العميق المؤثر بجانبيه تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب :

« فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون » ..

وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد فى سياقها ماينتظر المكذبين . « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » .. فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى الذى يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ، ولكنه مخيف : « فارتقب إنهم مرتقبون » ..



« حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟* وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

« اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً : فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » . .

هذه السورة المكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم فى مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعا كاملا فى غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذى سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ؛ وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية فى هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة فى مكة ، نرى فريقا من الناس مصرا على الضلالة ، مكابرا فى الحق ، شديد العناد ، سيء الأدب فى حق الله وحق كلامه ، ترسمه هذه الآيات ؛ وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم :

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم » ..

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئ التصور والتقدير ؛ لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقا أصيلا فى ميزان الله بين الفريقين ، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور ؛ وقيام الأمر فى ميزان الله على العدل الأصيل فى صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون » ..

ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هواه ، فهو إلهه الذى يتعبده ، ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصورا تصويرا فذا فى هذه الآية ؛ وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه :

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة ، ويشك كل الشك فى قضية البعث والحساب ، ويتعنت فى الإنكار وفى طلب البرهان بما لا سبيل إليه فى هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية ، وهم عنها معرضون :

« وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقا متعددة ممن واجهوا الدعوة فى مكة . بما فى

ذلك بعض أهل الكتاب ، وقليل منهم كان فى مكة. ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضى هذا وجوده فى مكة بالذات فى ذلك الحين .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم فى هذه السورة ذلك الحديث .. كذلك واجههم بآيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ،وحذرهم حساب يوم القيامة ، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن دين الله القويم .

واجههم بآيات الله فى هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق :

« إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وماأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ » ..

وواجههم بها مرة أخرى فى صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها :

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذى ينكرونه أويمارون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم : ماندرى ماالساعة ، إن نظن إلاظنا ، وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ماعملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار ، ومالكم من ناصرين : ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لايخرجون منها ولاهم يستعتبون » ..

كذلك لم يدع أى لبس أو شك فى عدالة الجزاء وفردية التبعة ؛ فبين أن هذا الأصل عميق فى تكوين الوجود كله ، وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » ..

وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فيقول :

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .. »

* * *

والسورة كلها وحدة فى علاج موضوعها ؛ ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها .

وهى تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم » . والإشارة إلى القرآن الكريم : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .. وتختم بحمد الله وربوبيته المطلقة ، وتمجيده وتعظيمه ، إزاء أولئك الذين يغفلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها : « فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » ..

ويسير سياق السورة فى عرض موضوعها فى يسر وهوادة وإيضاح هادىء ، وبيان دقيق عميق . على غير ما يسير سياق سورة الدخان قبلها فى إيقاع عنيف كأنه مطارق تقرع القلوب .

والله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق . وتارة باللمس الناعم الرفيق ، وتارة بالبيان الهادىء الرقيق . حسب تنوعها هى واختلافها . وحسب تنوع حالاتها ومواقفها فى ذاتها . وهو اللطيف الخبير . وهو العزيز الحكيم ..

والآن نأخذ فى التفصيل . .

* * *

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » ..

يذكر الحرفين : « حا . ميم » ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . وفيها دلالة على مصدر الكتاب ، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور . من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف ، وهم لا يقدرون على شىء منه ، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله . « العزيز » القادر الذى لا يعجزه شىء . « الحكيم » الذى يخلق كل شىء بقدر ، ويمضى كل أمر بحكمة . وهو تعقيب يناسب جو السورة وما تتعرض له من ألوان النفوس .

وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ، يشير إلى آيات الله المبثوثة فى الكون

من حولهم . وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلى الإيمان . وبتوجيه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ، وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب، وخالق هذا الكون العظيم :

« إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » ..

والآيات المبثوثة فى السماوات والأرض لا تقتصر على شىء دون شىء ، ولا حال دون حال . فحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب . .

وأى شىء ليس آية ؟

هذه السماوات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ، وهى — على ضخامتها — مبعثرة كالنثار الصغير فى الفضاء .. الفضاء الهائل الرهيب .. الجميل .. !

ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها فى دقة واطراد وتناسق .. تناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تمليه !

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر . وهى ذرة . أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة . ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذى تتوه فيه .. تتوه لولا القدرة التى تمسك بها وتنتظمها فى العقد الكونى الذى لا يتوه شىء فيه !

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض فى موقعها الكونى الخاص من صلاحية لنشوء الحياة فوقها ، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة . لو اختلت خصيصة واحدة منها أو تخلفت ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم ! [1] .

وكل شىء فى هذه الأرض وكل حى .. آية . . وكل جزء من كل شىء ومن كل حى فى هذه الأرض .. آية .. والصغير الدقيق كالضخم الكبير .. آية .. هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة .. آية .. آية فى شكلها وحجمها، آية فى لونها وملمسها . آية فى وظيفتها وتركيبها . وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان .. آية .. آية فى خصائصها ولونها وحجمها . وهذه الريشة فى جناح الطائر . . آية . . آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها . وحيثما مد الإنسان بصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره .

ولكن لمن ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ من الذى يراها ويستشعرها ؟

« لقوم يؤمنون » ..

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ص ١٢ — ١٥ جزء ١٩ من الظلال .

فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء ؛ والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء. والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف؛ وتلتقط مايذخر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة ، تشير كلها إلى اليد الصانعة ، وطابعها المميز فى كل ماتصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء . وكل ماخرج من هذه اليد فهو خارق معجز لايقدر على إبداعه أحد من خلق الله .

ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم ؛ وهى أقرب إليهم، وهم بها أكثر حساسية :

« وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون »..

وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب ، وبهذه الخصائص الفريدة ، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة. خارقة .خارقة نسيناها لطول تكرارها، ولقربها منا! ولكن التركيب العضوى لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدير الرأس عجبا ودهشة واستهوالا لهذا التركيب العجيب !

إن الحياة فى أبسط صورها معجزة . فى الإميبا ذات الخلية الواحدة . وفيما هو أصغر من الإميبا ! فكيف بها فى هذا الإنسان الشديد التركيب والتعقيد ؟ وهو فى تركيبه النفسى أشد تركبا وتعقدا من تركيبه العضوى !

وحوله تلك الخلائق التى تدب على الأرض أنواعا وأجناسا ، وأشكالا وأحجاما ، لايحصيها إلا الله . وأصغرها كأكبرها معجز فى خلقه. معجز فى تصريفه . معجز فى تناسب حيواته على هذه الأرض ، بحيث لايزيد جنس عن حدود معينة ، تحفظ وجوده وامتداده ، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفناء . واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير ؛ وتركب فى كل منها من الخصائص والقوى والوظائف مايحفظ التوازن بينها جميعا . .

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد . ولكنها فى مقابل هذا نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير .. ولنا أن نتصور كيف كان الأمر يكون لو كان للنسور نسل العصافير ؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور !

والأسود كذلك فى عالم الحيوان كاسرة ضارية . فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء ؟

إنها ما كانت تبقى على لحم فى الغابة ولا غذاء . . ولكن اليد التى تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب ! وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء وما إليها لسبب معلوم .

والذبابة الواحدة تبيض فى الدورة الواحدة مئات الألوف . . وفى مقابل هذا لا تعيش إلا حوالى أسبوعين اثنين . فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة أشهرا أو سنين ؟ لكان الذباب يغطى الأجسام ويأكل العيون ! ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير دقيق محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف .

وهكذا وهكذا . فى الخلق ذاته . وفى خصائصه . وفى تدبيره وتقديره . فى عالم الناس ، وعالم الدواب . . فى هذا كله آيات . آيات ناطقة. ولكن لمن ؟ من الذى يراها ويتدبرها ويدركها ؟

« لقوم يوقنون » . .

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كى تحس ، وكى تتأثر ، وكى تنيب . . اليقين الذى يدع القلوب تقر وتثبت وتطمئن ؛ وتتلقى حقائق الكون فى هدوء ويسر وثقة ، وفى راحة من القلق والحيرة والزعزعة. فتصوغ من أقل ما تحصل، أكبر النتائج وأعظم الآثار فى هذا الوجود.

ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم ، إلى الظواهر الكونية ، وماينشأ عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعا :

« واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » . .

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يُخلق جدتهما فى نفوس البشر التكرار ! ولكن أية عجيبة تطالع الحس البشرى وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار ؟ إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائما ، وينتفض لها دائما ؛ ويرى يد الله التى تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار .

وتنمو معارف البشر ، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية ، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة فى كل أربع وعشرين ساعة . ولكن العجيبة لا تنقص شيئا بهذه المعرفة . فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى . دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة ، وهو عائم فى الهواء ، سابح فى الفضاء ، غير مستند إلى شىء إلا إلى القدرة التى تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذى لا يتخلف ، وبهذا القدر الذى يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب السابح السارح الدائر فى الفضاء !

ويتوسع البشر فى علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء ؛ ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسى لوجود الحياة وبقاء الأحياء ؛ وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شىء على هذه الأرض ، وبخاصة تلك الحياة الإنسانية التى تخص المخاطبين . من الأحياء ! ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية فى الحس البشرى ولا تنقصان !

« وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » . .

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التى تنزل من السماء ليست أقل أثرا فى إحياء الأرض من الماء . بل إنها لهى التى ينشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هى التى تبخر الماء من البحار ، فتكاثف وتنزل أمطارا ، وتجرى عيونا وأنهارا ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء !

« وتصريف الرياح » . .

وهى تمضى شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، منحرفة ومستقيمة ، دافئة وباردة ، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود فى تصميم هذا الكون العجيب ؛ وحساب كل شىء فيه حسابا دقيقا لا يترك شيئا للمصادفة العمياء . . ولتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض ، وبظاهرتى الليل والنهار ، وبالرزق الذى ينزل من السماء . وكلها تتعاون فى تحقيق مشيئة الله فى خلق هذا الكون ، وتصريفه كما أراد . وفيها «آيات» معروضة فى الكون . ولكن لمن ؟

« لقوم يعقلون » . .

فللعقل هنا عمل ، وله فى هذا الميدان مجال .

***

هذه بعض آيات الله الكونية ، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين . الذين يوقنون والذين يعقلون . يشير إليها بآيات الله القرآنية ، فتلمس القلوب ، وتوقظ العقول ، وتخاطب الفطر بلغتها المباشرة ، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة ، لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء فى أن يؤمن بسواها ؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

إن أى كلام لن يبلغ كلام الله فى القرآن . وإن أى إبداع لن يبلغ إبداع الله فى الكون . وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله فى الثبوت والوضوح واليقين . « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

وهنا لايليق بمن لايؤمن إلا التهديد والتنكيل :

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها. فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين. من ورائهم جهنم ، ولايغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولاما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم » ..

وتصور هذه الآيات ـ كما أسلفنا فى تقديم السورة ـ جانبا من استقبال المشركين لهذه الدعوة فى مكة ، وإصرارهم على باطلهم ،واستكبارهم عن سماع كلمة الحق البين ،ومكابرتهم فى هذا الحق كأنه لم يطرق أذهانهم ،وسوء أدبهم مع الله وكلامه ..ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم .

« ويل لكل أفاك أثيم » ..

والويل الهلاك . والأفاك الكذاب المارد على الكذب . والأثيم الكثير المقارفة للإثم . والتهديد شامل لكل من هذه صفته . وهو تهديد صادر من الله القوى القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار . الصادق الوعد والوعيد والإنذار . فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب .

هذا الأفاك الأثيم . آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولايتأدب بالأدب اللائق مع الله :

« يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها » ..

وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين فى مكة ، إلا أنها تتكرر فى كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغدا . فكم فى الأرض ، وبين من يقال إنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ؟ لأنها لاتوافق هواه،ولاتسير مع مألوفه ، ولاتعاونه على باطله ، ولاتقره على شره ، ولاتتمشى له مع اتجاه !

« فبشره بعذاب أليم » ..

والبشارة للخير . فهى هنا للسخرية . فإذا كان لايسمع النذير ، فليأته الويل المنظور ، فى صوت البشير ! زيادة فى السخرية والتحقير !

« وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا » ..

بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها . وهذه أشد وأنكى . وهى صورة كذلك مكرورة فى الجاهليات الأولى والأخيرة . وكم من الناس . وبين من يقال إنهم مسلمون . من يستهزئ بآيات الله التى يعلمها ، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها ؟ وممن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها .

« أولئك لهم عذاب مهين » ..

فالمهانة هى الجزاء المناسب لمن يستهزئ بآيات الله وهو يعلمها .

وهو عذاب حاضر قريب ؛ وإن كان موعده آتيا بعد حين. ولكنه فى حقيقته قائم موجود:

« من ورائهم جهنم » ..

ولفظ « من ورائهم » مقصودة ظلاله فوق معناه .وظلاله .. أنهم لايرونه لأنه من ورائهم ولايتقونه لأنهم فى غفلة عنه ؛ ولايفوتهم فهم سيقعون فيه !

« ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » .

فليس شيء مما عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئا ، فعملهم ـ ولو صلح ـ هباء لا يقدرون على شيء منه ، وهو قائم على غير أساس من إيمان . وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شيء فيه غناء. وأولياؤهم من دون الله ـ آلهة أو أعوانا وجندا أو خلانا ـ لا يملكون لهم نصرا ولا شفاعة.

« ولهم عذاب عظيم » . .

فوق أنه مهين . فجرمهم فى الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضى المهانة ، جسيم يقتضى جسامة التعذيب . .

وينتهى هذا المقطع ، الذى ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله ، والصد عنها والاستكبار ، بكلمة عن حقيقة هذه الآيات ؛ وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة فى إجمال :

« هذا هدى . والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » . .

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى . هدى خالص مصفى . هدى محض لا يشوبه ضلال . فالذى يكفر بعد ذلك بالآيات ، وهذه حقيقتها ، يستحق ألم العذاب . الذى يمثله توكيد معنى الشدة والإيلام . فالرجز هو العذاب الشديد . والعذاب الذى يهددون به هو عذاب من رجز أليم.. تكرار بعد تكرار.وتوكيد بعد توكيد.يليق بمن يكفر بالهدى الخالص المحض الصريح.

***

وبعد التهديد المخيف ، والوعيد الرعيب ، يعود فيلمس قلوبهم لمسا رفيقا ، بالتذكير بأنعم الله التى سخرها لهم فى هذا الكون العريض :

«الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره،ولتبتغوا من فضله،ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

إن هذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . يحظى من رعاية الله ـ سبحانه ـ بالقسط الوافر، الذى يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة ، وينتفع بها على شتى الوجوه.وذلك بالاهتداء

إلى طرف من سر الناموس الإلهى الذى يحكمها ، والذى تسير وفقه ولا تعصاه . ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشىء من قوى الكون الهائلة ؛ بل ما استطاع أن يعيش معها ؛ وهو هذا القزم الصغير ، وهى هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام .

والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التى سخرها الله للإنسان ، فهداه إلى شىء من سر تكوينها وخصائصها ؛ عرف منه هذه الفلك التى تمخر هذا الخلق الهائل ، وهى تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها ! « لتجرى الفلك فيه بأمره » . . فهو — سبحانه — الذى خلق البحر بهذه الخصائص ، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص ، وجعل خصائص الضغط الجوى ، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض . . . وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك فى البحر . وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به ، وأن ينتفع كذلك بالبحر فى نواح أخرى : « ولتبتغوا من فضله » كالصيد للطعام وللزينة ، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والنزهة ؛ وسائر ما يبتغيه الحى من فضل الله فى البحار .

سخر الله للإنسان البحر والفلك ، ليبتغى من فضل الله ؛ وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام ، وعلى التسخير والاهتداء : « ولعلكم تشكرون » . . وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق ، وإلى الارتباط بذلك الأفق ، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة فى المصدر ووحدة فى الاتجاه . . إلى الله . .

ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول . فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما فى السماوات وما فى الأرض ، من قوى وطاقات ونعم وخيرات — مما يصلح له ويدخل فى دائرة خلافته — :

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه » . .

فكل شىء فى هذا الوجود منه وإليه ؛ وهو منشئه ومدبره ؛ وهو مسخره أو مسلطه . وهذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية . يسخر به قوى فى هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس ! وكل ذلك من فضل الله عليه . وفى كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر ، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

والفكر لا يكون صحيحا وعميقا وشاملا ، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التى يكشف

سرها ، إلى مصدر هذه القوى والطاقات ؛ وإلى النواميس التى تحكمها ؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان . هذه الصلة التى تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها . ولولاها ما اتصل ولا أدرك . ولا عرف ولا تمكن ، ولا سخر ولا انتفع بشىء من هذه القوى والطاقات . .

* * *

وحين يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوى الذى يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود . ويشعره بمصدر القوة الحقيقى وهو الاهتداء إلى أسرار هذا الوجود . . عند هذا يدعو المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر فى مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثرى الغنى . كما يدعوهم إلى شىء من العطف على هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ؛ من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التى يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه :

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون . من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله . تسامح المغفرة والعفو . وتسامح القوة والاستعلاء . وتسامح الكبر والارتفاع . والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحيانا بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، الذى يزخر بالنداوة والرحمة والقوة والثراء . نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتماء بركنه ، واللجوء إليه فى ساعات الكربة والضيق . وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وماوراءها من القوى والثروات . والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره ، ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات .

هذا من جانب . ومن الجانب الآخر ، ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته . ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة فى سجل الحسنات . ذلك فيما لا يظهر الفساد فى الأرض ، ويعتدى على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال :

« ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » . .

ويعقب على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده فى نهاية المطاف :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره ؛ ويحتمل المساءات الفردية والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين ، فى غير ضعف ، وفى غير ضيق . فهو أكبر وأفسح وأقوى . وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من النبع ، وهو مجزى بعمله ، لايصيبه من وزر المسىء شىء . والأمر لله فى النهاية ، وإليه المرجع والمآب .

***

بعد ذلك يتحدث عن القيادة المؤمنة للبشرية، وتركز هذه القيادة أخيراً فى الرسالة الإسلامية ؛ فيشير إلى اختلاف بنى إسرائيل فى كتابهم ، بعد ما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة . وانتهاء راية القيادة والحكم إلى صاحب الدعوة الأخيرة . هذا وهو بعد فى مكة . والدعوة بعد مطاردة محاصرة . ولكن طبيعتها هى هى منذ نشأتها ، ومهمتها هى مهمتها :

« ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » . .

كانت القيادة — قبل الإسلام — لبنى إسرائيل . كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التى اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ . ولابد للبشر من قيادة مستمدة من السماء . فالأرض قيادتها هوى أوجهل أوقصور . والله خالق البشر هو وحده الذى يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلهم عباده ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذى خلقهم وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

« ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » . .

فكان فيهم التوراة شريعة الله . وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة . وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب . وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبيا فى التاريخ .

« ورزقناهم من الطيبات » . .

فكانت مملكتهم ونبواتهم فى الأرض المقدسة، الطيبة، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات .

« وفضلناهم على العالمين » . .

وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال ؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله ؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة :

« وآتيناهم بينات من الأمر » ..

فكان ماأوتوه من الشريعة بينا حاسمافاصلا ، لاغموض فيه ولالبس ولاعوج ولاانحراف؛ فلم يكن هناك مايدعو إلى الاختلاف فى هذا الشرع البين كما وقع منهم ؛ وما كان هذا عن غموض فى الأمر ، ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم :

« فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » . .

إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم ، ونزاع وظلم ، مع معرفة الحق والصواب :

« بغيا بينهم » . .

وبذلك انتهت قيادتهم فى الأرض،وبطل استخلافهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة:

« إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

ثم كتب الله الخلافة فى الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد،يرد إلى شريعة الله استقامتها، وإلى قيادة السماء نصاعتها ؛ ويحكم شريعة الله لا أهواء البشر فى هذه القيادة :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » . .

وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ؛ وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون !

والله ــ سبحانه ــ يحذر رسوله ــ صلى الله عليه وسلم أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فهم لا يغنون عنه من الله شيئا . وهم يتولون بعضهم بعضا . وهم لا يملكون أن يضروه شيئا حين يتولى بعضهم بعضا ، لأن الله هو مولاه :

«إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض . والله ولى المتقين»..

وإن هذه الآية مع التى قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده ، وتغنى فى هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين » . .

إنها شريعة واحدة هى التى تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شىء من الشريعة إلى شىء من الأهواء.فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة . وهم إلب عليه فبعضهم ولى لبعض . وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا

يجوز أن يأمل فى بعضهم نصرة له أو جنوحا عن الهوى الذى يربط بينهم برباطه . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولى المتقين . وأين ولاية من ولاية ؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضا ؟ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولى المتقين ؟

وتعقيبا على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما فى هذا القول وأمثاله فى القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين :

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » ..

ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة .. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التى لا تخامرها شك ، ولا يخالطها قلق ، ولا تتسرب إليها ريبة . وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحا ، والأفق منيرا ، والغاية محددة ، والنهج مستقيما . وعندئذ يصبح هذا القرآن له نورا وهدى ورحمة بهذا اليقين ..

***

ويعقب على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين ؛ وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين ، وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين . يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون . ويستنكر أن يسوى بينهم فى الحكم ، وهم مختلفون فى ميزان الله . والله قد أقام السماوات والأرض على أساس الحق والعدل ؛ والحق أصيل فى تصميم هذا الكون .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » ..

ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم فى صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أندادا لهم فى تقدير الله سواء فى الحياة أو بعد الممات . أى عند الحساب والجزاء .. كما يجوز أن يكون حديثا عاما بقصد بيان قيم العباد فى ميزان الله . ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح ؛ واستنكار التسوية بين مجترحى السيئات وفاعلى الحسنات ، سواء فى الحياة أو فى الممات . ومخالفة هذا للقاعدة الثابتة الأصيلة فى بناء الوجود كله . قاعدة الحق -

الذى يتمثل فى بناء الكون ، كما يتمثل فى شريعة الله . والذى يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس . والذى يتحقق فى التفرقة بين المسيئين والمصلحين فى جميع الأحوال ؛ وفى مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أوضلال ؛ وفى تحقيق العدل للناس أجمعين : « وهم لا يظلمون » . .

ومعنى أصالة الحق فى بناء الكون ، وارتباطه بشريعة الله للبشر ، وحكمه عليهم يوم الحساب والجزاء . معنى يتكرر فى القرآن الكريم ، لأنه أصل من أصول هذه العقيدة ، تجتمع عليه مسائلها المتفرقة ، وترجع إليه فى الأنفس والآفاق ، وفى ناموس الكون وشريعة البشر . وهو أساس « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان »[1]

* * *

وإلى جوار هذا الأصل الثابت يشير إلى الهوى المتقلب . الهوى الذى يجعل منه بعضهم إلها يتعبده . فيضل ضلالا لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله :

«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » . .

والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجا عجيبا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب ؛ وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلها قاهرا لها ، مستوليا عليها ، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . يرسم هذه الصورة ويعجب منها فى استنكار شديد :

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ » . .

أفرأيته ؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى . فما أبقى فى قلبه مكانا للهدى وهو يتعبد هواه المريض !

« وأضله الله على علم » . .

على علم من الله باستحقاقه للضلالة . أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلها يطاع . وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له فى عماه :

« وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » . .

فانطمست فيه تلك النافذ التى يدخل منها النور ؛ وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى . وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم .

---

(١) بحث يرجو المؤلف أن يقدمه إن شاء الله .

« فمن يهديه من بعد الله ؟ » . .

والهدى هدى الله . وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة . فذلك من شأن الله ، الذى لا يشاركه فيه أحد ، حتى رسله المختارون .

« أفلا تذكرون ؟ » . .

ومن تذكر صحا وتنبه ، وتخلص من ربقة الهوى، وعاد إلى النهج الثابت الواضح ، الذى لا يضل سالكوه . .

« وَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ : اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ؟* وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، قُلْتُمْ : مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

« فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ، رَبِّ ٱلسَّمَاوَاتِ ، وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ، رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » . .

هذا المقطع الأخير من السورة يعرض مقولة المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب. ويرد عليها من واقع نشأتهم الذى لامجال لإنكاره ، وهو واقع قريب منهم . ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، يرونه واقعابهم ـ وإن كان لم يحن بعد موعده ـ لأن التصوير القرآنى يعرضه حيا شاخصا كأنهم يرونه رأى العين من خلال الكلمات .

ثم تختم السورة بالحمد لله ، الواحد الربوبية فى السماوات وفى الأرض ولجميع العالمين فى السماوات والأرض . وتمجيد عظمته وكبريائه المتفردة فى السماوات والأرض ، لاترتفع أمامها هامة ، ولايتطاول إليها متطاول .. وهو العزيز الحكيم ..

* * *

« وقالوا : ماهى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ومايهلكنا إلا الدهر ، ومالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه .ولكن أكثر الناس لايعلمون » ..

هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة .الحياة فى نظرهم هى هذا الشوط الذى يرونه فى الدنيا رأى العين . جيل يموت وجيل يحيا ؛ وفى ظاهر الأمر لاتمتد إليهم يد بالموت ،إنما هى الأيام تمضى ، والدهر ينطوى ، فإذا هم أموات ؛ فالدهر إذن هو الذى ينهى آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون !

وهى نظرة سطحية لاتتجاوز المظاهر ، ولاتبحث عماوراءها من أسرار . وإلافمن أين جاءت إليهم الحياة ؛ وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ؟ والموت لاينال الأجسام وفق نظام محدد وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذى يسلبهم الحياة . فالأطفال يموتون كالشيوخ والأصحاء يموتون كالمرضى . والأقوياء يموتون كالضعاف . ولايصلح الدهر إذن تفسيرا للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ، ويحاول أن يعرف ، وأن يدرك حقيقة الأسباب .

لهذا يقول الله عنهم بحق :

« ومالهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون » :

يظنون ظنا غامضا واهيا ، لايقوم على تدبر ، ولايستند إلى علم ، ولايدل على إدراك لحقائق الأمور . ولاينظرون إلى ماوراء ظاهرتى الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، وبسبب آخر غير مرور الأيام .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » . .

وهذه كتلك تدل على نظرة سطحية لاتدرك نواميس الخلق ، وحكمة الله فيها ، وسر الحياة والموت الكامن وراءهما ، المتعلق بتلك الحكمة الإلهية العميقة . فالناس يحيون فى هذه الأرض ليعطوا فرصة للعمل وليبتليهم الله فيما مكنهم فيه . ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذى أجله الله ، فيحاسبوا على ماعملوا ، وتتبين نتيجة الابتلاء فى فترة الحياة . ومن ثم فهم لايعودون إذا ماتوا . فليست هنالك حكمة تقتضى عودتهم قبل اليوم المعلوم . وهم لايعودون لأن فريقا من البشر يقترحون هذا . فاقتراحات البشر لاتتغير من أجلها النواميس الكبرى التى قام على أساسها الوجود ! ومن ثم فلا مجال لهذا الاقتراح الساذج الذى كانوا يواجهون به الآيات البينات : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » !

ولماذا يأتى الله بآبائهم قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا ؟ ألكى يقتنعوا بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ ياعجبا ! أليس الله ينشىء الحياة أمام أعينهم إنشاء فى كل لحظة ، وفق سنة إنشاء الحياة ؟

« قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه » . .

هذه هى المعجزة التى يريدون أن يشهدوها فى آبائهم . هاهى ذى تقع أمام أعينهم . بعينها وبذاتها . والله هو الذى يحيي . ثم هو الذى يميت . فلا عجب إذن فى أن يحيي الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولاسبب يدعو إلى الريب فى هذا الأمر ، الذى يشهدون نظائره فيما بين أيديهم :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

ويعقب على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلى الذى ترجع إليه :

« ولله ملك السماوات والأرض » . .

فهو المهيمن على كل مافى الملك . وهو صانع كل شىء فيه . وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل مافيه وكل من فيه .

* * *

ثم يعرض عليهم مشهدا من هذا اليوم الذى يشكون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . .

إنه يعجل لهم فى الآية الأولى عاقبة المبطلين . فهم الخاسرون فى هذا اليوم الذى يشكون فيه . ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة ، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التى عمرت هذا الكوكب فى عمره الطويل القصير ! وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة . فى ارتقاب الحساب المرهوب . . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها فى صعيد واحد. ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب. ومرهوب قبل كل شىء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، الذى لم تشكر أنعمه ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين !

ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق . يقال لها :

« اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . . فيعلمون أن لا شىء سينسى أو يضيع ! وكيف وكل شىء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شىء ولا يغيب ؟ !

« ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة ، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين . فريقين اثنين يجمعان كل هذه الحشود : الذين آمنوا . والذين كفروا . فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله وهذان هما الحزبان : حزب الله . وحزب الشيطان . وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود :

«فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين» . .

وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب . . والنص ينهى أمرهم فى سرعة وفى بساطة ، ليلقى هذا الظل المستطاب .

ثم نلقى بأبصارنا ــ من خلال الكلمات ــ إلى الفريق الآخر . فماذا نحن واجدون ؟ إنه التأنيب الطويل ، والتشهير المخجل ، والتذكير بشر الأقوال والأعمال :

« وأما الذين كفروا . أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ، فاستكبرتم ، وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها . قلتم : ما ندرى ما الساعة ! إن نظن إلا ظنا ، وما نحن بمستيقنين » !

فالآن كيف ترون الحال ؟ ! وكيف تذوقون اليقين ؟ ! .

ويتركهم السياق لحظة ليعلن على الملأ شيئا مما يقع لهؤلاء المنكوبين :

« وبدا لهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

ثم يعود إليهم بالترذيل والتأنيب وإعلان الإهمال والتحقير ؛ والمصير الأليم :

«وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا . ومأواكم النار . ومالكم من ناصرين. ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا » . .

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير.وهم متروكون فى جهنم لايخرجون ولايطلب إليهم اعتذار ولا عتاب :

« فاليوم لا يخرجون منها ، ولاهم يستعتبون » . .

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير ! وقد انتهى المشهد ، فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير !

* * *

هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق :

« فلله الحمد . رب السماوات . ورب الأرض . رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

ينطلق صوت التحميد . يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود. سمائه وأرضه . وإنسه وجنه. وطيره ووحشه . وسائر مافيه ومن فيه . فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد . يعلن الكبرياء المطلقة لله فى هذا الوجود . حيث يتصاغر كل كبير . وينحنى كل جبار . ويستسلم كل متمرد . للكبرياء المطلقة فى هذا الوجود .

ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة .. « وهو العزيز الحكيم » .. والحمد لله رب العالمين .

انتهى الجزء الخامس والعشرون.
ويليه الجزء السادس والعشرون
مبدوءا بسورة الأحقاف

كتب للمؤلف

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	» » » »
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» رابعة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثالثة)	» »
٨ ـ المدينة المسحورة	(» ثانية)	» »
٩ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
١٠ ـ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١١ ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١٢ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٣ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٤ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٥ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٦ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٧ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)




Bibliotheca Alexandrina
0593925